كتاب الهلال

سلسلة
ثقافية
شهرية

عصير حياتهم

عبد التواب عبد الحى

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيس مجلس الإدارة: فكري أباظة • نائب رئيس مجلس الإدارة: صالح جودت

رئيس التحرير: صالح جودت

المشرف الفني: جمال قطب

سكرتير التحرير: عايد عياد

العدد ٢٩٤ – جمادى الاولى ١٣٩٥ – يونية ١٩٧٥

No. 294 — June 1975

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

تليفون: ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى: «١٢ عددا» فى جمهورية مصر العربية وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى ١٢٠ قرشا صاغا • فى سائر انحاء العالم ٦ دولارات امريكية او ٢٫٥ جنيه – والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى جمهورية مصر العربية والسودان بحوالة بريدية • فى الخارج بشيك مصرفى قابل للصرف فى جمهورية مصر العربية والاسعار الموضحة اعلاه بالبريد العادى – وتضاف رسوم البريد الجوى والمسجل على الاسعار المحددة عند الطلب •

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي

Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

كتاب الهلال

سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

الغــلاف بريشـــة
الفنان جمــال قطب

Twitter: @sarmed74 Sarmed- المهندس سرمد حاتم شكر السامرائي
Telegram: https://t.me/Tihama_books قناتنا على التليجرام: كتب التراث العربي والاسلامي

عبد التواب عبد الحى

عصير حياتهم

فن الحياة .. عند أشهر
النجوم فى سماء الفن العربى !

دار الهلال

تقديم

صديقى : قارئى ..

«... وكتابى هذا .. من مصادر خفة الظل فيه ، رقة حياة شخصياته ورهافتها .. انهم باقة من ألمع النجوم فى دنيا الفنون .. وجوهرة التاج فى صدر الكتاب : شخصية أم كلثوم !.. أم كلثوم : كما لقيتها وتحدثت اليها طويلا . وكما درستها فى كل سطر كتب عنها ، بكل اللغات ، منذ الثلاثينات حتى الآن . ثم : ام كلثوم .. من عدة « ثقوب مفتاح » فى أبواب جانبية كثيرة ، كلها تطل عليها !

ولقد حاولت ، محققا ومدققا ، أن أصل الى « جسم الحقيقة » فى حياة كل فنان كتبت عنه .. لكن الفنانين ــ الممثلين بصفة خاصة ! ــ ناس انفعاليون . مراوغون . ممثلون دائما : على الشاشة على خشبة المسرح . وأيضا على مسرح الحياة !..

... يقول طب النفس عن النجم الممثل : « انه يتمتع عاده بكمية هائلة من الميول الاستعراضية . فهو يكسو الحقيقة بأخيلته المناسبة ، ويغيرها ، ويبالغ فيها !.. وهو يصدر فى ذلك عن دوافع ظهورية ، هى نفس الدوافع التى جعلته يختار لنفسه فن التمثيل ، دون غيره من اشكال الفن الاخرى !.. انه ممثل دائما ، وفى

كل وقت ! » ... ومثلما ينطبق هـــذا التوصيف على النجم الممثل ، فانه ينطبق على النجمة الممثلة أكثر !..

... وتتفق مراجع طب النفس على تشخيص واحد لشخصية الممثل .. تقول : « انه ، لدوافعه الظهورية ، شخصية شبه هستيرية Histerie Personality

.. والشخصية الشبه هستيرية شخصية اقرب الى الصحة ، طبيا ، منها الى المرض .. وهى تختلف عن الشخصية الهستيرية Histeroid Personality والتى تـــكون على حافة أقرب الى المرض ، منها الى الصحة » !..

....

...حتى يكون لى عندك حجتى واعتذارى، اذا اكتشفت وانت تقرأ أننى قدمت لك « جسم الحقيقة » فى حياة فنانة أو فنان منهم ، بانقص من درجة الاكتمال !..

عبد التواب عبد الحى

أم كلثوم :
كلام .. فى الشمس !

بجر غريق ، عميـــق ، أمواجه فن بلانينى يلمع ويصعد مع الزمن .. يصـعد .. ولا يهبط أبدا !.. وعلى رأس الموج عقل علمانى ذكى يشوف المستقبـل ، وينقاد اليه !.. وفى أحشـــاء البحر الغريق عواطف انسانية نقية وكامنة ، وشخصـيـة آسرة مصقولة ، وكاملة ، وليس فى أعماق البحر وحشـة .. فى عمقـه النورانى الفـة ومحبـة ، بحر يحب الحب والمحبين ، ويتغنى باسمهم وبأشواقهم ، ويعشق الله ويتصوف فى عشقه له ومذلته اليه ! ويقـدس الوطن العربى ، حتى ليكاد يعبد ــ بعد الله ــ ترابه !

... عن بحر من احكى ، غير بحر حياة أم كلثوم ؟!

ومغى فى بحر أم كلثوم ، نعوم .. أقصى الامل أن نصل ، بالجهد والبحث والحوار ، الى مسافة أمتـار قليلة من أميال لا نهائية !..

كيف كانت أم كلثوم تفكر لغنها ؟ وبأى المقاييس تقيس؟

أعود بك الى أواخر ديسمبر عام ١٩٦٨ .. أم كلثوم مطهومة فى تجهيز ٦ من أحدث أغانيها ، لتختار منها ٤ فقط تغنيها فى حفلتين متتاليتين لصالح المجهود الحربى أين ؟ على المسرح القومى بأم درمان ، السـودان . عادتها قبل كل حفلة أن تجهز ضعف عدد الاغانى التى سـتقدمها فيها ، لتبقى فى يدها دائما حرية الحركة ، وفرصة الانتخاب والاختيار .. وانتخاب القليـل من الـكثير « عنصر قياسى » من عناصر الـكفاية والتجويد!

وأم كلثوم فى حفلاتها لا تختار من اغانيها ما تغنيه ، بالقرعة .. وانما بالدراسة والفراسة !.. بنظرة مختلسة تفحص بها جمهورها من فرجة الستار ، قبل لحظات من رفع الستار !.. عادة ، أصبحت «اسلوبا» لها فى كل حفلة ، تختار بمقياسه أنسب أغانيها لجمهور « هذا المساء » .. منذ مساء الخميس ٢٧ يناير عام ١٩٣٥ ، عندما قدمت أم كلثوم على مسرح دار الاوبرا بالقاهرة أول حفلة — فى تاريخها الفنى — مذاعة على الهواء .. وحتى مساء الخميس ٧ ديسمبر سنة ١٩٧٢ ، عندما غنت « حفلة الوداع » !

وأم كلثوم تجهز اغانيها التى ستنتخب من بينها ما تقدمه فى حفلة ، أى حفلة ، قبل ميعادها بـ ١٥ يوما على الاقل !.. و « تجهيز » الاغانى يعنى عند أم كلثوم « بروفات » يومية مع أعضاء فرقتها الموسيقية على لحن الاغنية مهما كان قديما ، ومهما كان لها فى غنائه بالسابق سوابق !.. وبروفاتها على أغانيها تتم غالبا فى ستوديو أم كلثوم بمبنى الاذاعة والتليفزيون ، أو فى احدى قاعات المعهد العالى للموسيقى بالقاهرة . هناك ، تعيد وتزيد ، وتتقن كل التراديد .. باستثناء تلك التراديد التى ترتجلها أحيانا على المسرح ، عندما تنسجم و«السخن» ، فتضيف للحن لحنا !

وأم كلثوم تجهز اغانيها ببروفات شاقة تستغرق أغلب النهار .. لكنها عندما تسافر لتغنى فى بلد عربى ، تجهز حقائبها للسفر .. نهاز السفر !.. بقولها : « مايهمنيش غير فساتينى التى سأغنى بها .. وبعدها لا يهم .. أى هدوم احطها فى الشنطة تكفى » !

قبل سفرها الى الخرطوم أواخر ديسمبر عام ١٩٦٨ أم كلثوم بالتليفون .. وأمتع أحاديثى مع أم كلثوم كانت بالتليفون !..

* أول مرة تزوري الخرطوم ياست ؟

أم كلثوم : فى الحقيقة .. آه .. لكن فى الخيال.. لا !.. انا أصلى قريت كتير عن السودان ، سياسة ، وشعر .. ومتشوقة أزوره !

* والجنوب .. جنوب السودان وجنته الخضراء .. هل تزورينه ؟

أم كلثوم : انا مالى بقى ومال الجنوب ؟ ! انا حاغنى فى أم درمان وبس .. بالكتير ان اتمشيت شوية فى النيل ، خصوصا عند النيل الابيض لما بيحتوى النيل الازرق ويضمه .. بيقولوا المنظر هناك ما بتنسيش ! « بفضول وتخابث » : لكن قل لى بقى : انت لازم رحت جنوب السودان ! ؟

* أيوه زرته وعشت فى أدغاله أمتع أيامى ..

أم كلثوم : « بانبهار صادق النبرة » .. ياسلام ! عشت فى الغابات بقى .. فيها ايه الغابة ؟ !

* فيها الصدق مراية ، والفطرة عذراء لم تمس ! فيها كل مخلوق بحجمه الطبيعى ، وكل حيوان يحفظ مركزه تماما : الاسد أسد . والضبع ضبع . ما تلاقيش ضبع لابس باروكة أسد زى ما بيحصل فى « غابة العمارات » .. قصدى فى غابة المدينة ! وجنب مدينة «جوبا» عاصمة « المديرية الاستوائية » وفى أقصى حدود الجنوب مع حدود أوغندة ، فيه حاجة اسمها الـ « جيم ريزيرف » .. حديقة حيوان طبيعية ، تمشى فيها بالعربية ، تشوفى حيوانات الغابة كلها متعايشة وعايشة !

أم كلثوم : « مبهورة أكثر ! » .. شفت .. شفت الاسد على الطبيعة ؟ !

* لا ، لامؤاخذة يعنى ، شفت الانثى بتاعته !..

شبل من أشبالها سرح بعيدا عن عرين العائلة فى الدغل الـكثيف .. طلعت تجرى بمنتهى اللهفـة والحنان ، ولحقته .. ضبت بأسنانها فى رقبته .. رجعت تجرى به وهو يتطوح بين أنيابها ، حتى قبل عرين العائلة ب ٥ أمتار تقريبا .. و .. هب ، وبمنتهى القسوة ، طوحته فى الهواء ليسقط فى العرين زى الـكرة لما تسـقط فى السلة !.. حنان متناه ، وقسوة متناهية ، والاثنان فى قلب أم !

أم كلثوم : « بفضول ذكى ! » .. عجايب .. لـكن الخرطوم دلوقت جوها ازاى .. الطقس يعنى ؟

* جو ربيعى . ديسمبر ويناير ـ وكنا فى ديسمبر ـ بيسموهم فى السودان : فصل الصيف !.. لا مطر ، والجفاف شامل . اما بقية شهور السنة فهى الشتاء.. شتاء حار ، والامطار تفيض لها الانهار !

أم كلثوم : لـكن صحيح الحشرات فى الغابة اخطر من .. الحيوانات المفترسة ؟ !

* صحيح فعلا !.. ذبابة « التسى تسى » تقـدرى تعتبريها « أسد طائر » !.. لدغتها والنوم حتى الموت! ذبابة « اللوا.لوا » قرصتها بدودة فى الاوعية الليمفاوية تحت الجلـد .. والدودة تلد مخلوقات ميكروسكوبيـة اسمها « فلاريا ».. والفلاريا تسبح فى الدم.. وتتمركز فى المركز العصبى للابصـار وراء العينين مبـاشرة .. ثم فجأة تندفع لتشق بياض العينين ، فتفقد العينـان نورهما !

أم كلثوم : « بخوف مسموع » .. أنا صحيح فلاحة بنت فلاحين .. لـكن باخاف جدا من الحاجات دى ! مثيرة أى نعم ، لـكن ضـد مزاجى وطبيعتى على طول الخط .. أنا ما احبش اشوف خنـاقة .. ما احبش اشوف ماتش ملاكمة ، حتى لو كان اللى بيلعب محمد

على كلاى ! ما احبش أشوف منظر دم سايح ، ولو كان دم فرخة !

وانتهت المكالمة الطويلة ، جئت أحدثها ، فسرقت منى هى الحديث ! طبيعة غلابة فى أم كلثوم أن تشترى الكلام أكثر من أن تبيعه ! والصمت فن ، وحكمة ، وعبادة ، وغموض يثير !

***

ندخل معا الى عقل أم كلثوم ، قبل أن نركب معا بساط البحث عن «جسم الحقيقة» فى حياتها . أن سر أم كلثوم فى عقلها الذهبى وحنجرتها البلاتين ، معا ! قد يكون النجاح صعبا ، لكن المحافظة على النجاح فن أصعب .. والأسئلة تتداعى الآن :

كيف حافظت أم كلثوم على تألقها الصاعد الدائم على عرش الغناء ؟ ماهى أسرار شخصيتها الفنية والبشرية؟ ما هى صفاتها النفسية التى تنعكس على موقفها من الفن ؟ من الناس ؟ من المال ؟ من القيم ؟ من الحياة كلها ؟ !

دراسة مجهدة توصلنا للاجابة عن هذه الاسئلة . وأبادر فأسجل مقدما مصادرى فى هذه الدراسة .. انها أولا : معلوماتى المباشرة من لقاءاتى القليلة بأم كلثوم ، ومكالماتى الكثيرة ! وثانيا : مانشر عن أم كلثوم فى الصحف المصرية والاجنبية فى الـ ٣٥ سنة الاخيرة . ومصدرى الثالث : كتاب « أم كلثوم » للدكتورة نعمات فؤاد ، وهو الكتاب اليتيم ذو القيمة فى المكتبة العربية كلها عن حياة سيدة الغناء العربى !

وأبدأ بالفكرة الأم عند أم كلثوم : فكرة الاتقان ، أو التجويد ، وفكرة اتقان العمل الفنى هى ــ رايى ــ السبب

الثاني فى نجاح أم كلثوم وتالقهـا الفنى الدائم . أما السبب الاول فهو بالطبع : حنجرتها البلاتين ! .. هى دائما تحرص ، تدرس ، نفكر قبل أن تقرر ، تنتخب القليل من الـكثير !

ولام كلثوم فى هـذه النقطة أفكار واضحة .. تقول ام كلثوم : « تجويد العمل هو الطريق الى بقائه . العمل الذى يتم بكلفتة وسهولة ، يموت أيضا بسهولة ! اما العمل الذى تعطيه كل جهدك وفنك ، وتقيمه على أساس علمي ، وفى ظروف مواتية ، فانه يخلد طويلا ! »

وتقول أم كلثوم : « ان الاتقان فى رأيى لايحتاج لموهبة انه مثابرة ، عادة تكتسب ، عمـل ارادى يحتاج فقط الى : نظرة علمية مخلصة للمستقبل ، زائد اراده قوية! واتقان العمل والاخلاص له هو الذى يعطى للفرد ثمرة شهية اسمها النجاح ، ويعطى للأمة ـ أية أمة ـ بستانا مزهرا اسمه : الحضارة ! »

لـكن .. كيف تطبق أم كلثوم فكرة التجويد والاتقان على فنها ؟ كيف تترجم الفكرة الى سلوك فنى ؟

الـكلمات لام كلثوم ، وهى بعد فى دنيانا ، تجيب : « اى أغنية جديدة أقدمها للنـــاس ، لابد أولا أن تعايشنى وحدى سـنة كاملة كلاما ولحنا .. اترنم بالـكلمات ، واتذوق اللحن ، ومفتاح نجاح اى أغنيـة فى كلماتها .. لهذا اهتم بانتخاب الـكلمات لدرجة كبيرة ومدققة . أفاضل بين جرس الـكلمات ، ومعانيها . أزن الاخيلة الشعرية فى الاغنية بميزان حســاس ولابد أن تطربنى كلمات الاغنية أولا ، قبل ان اتوقع أن يطرب لها الآخرون ! »

« والمفاضلة والاختيار» .. أم كلثوم تكمل «.. مبـدأ أطبقه دائما على كل ما يتعلق بفنى .. من الـكلمات ، الى اللحن ، الى اى الاغانى أغنيها فى حفلة هذا المساء !

... ورغم هـذه الدقة العلمانية فى العمل الفنى ، ورغم أن تصفيق الوجد الهستيرى فى حفلات أم كلثوم يعد أطول تصفيق يستحسن به مخلوق عمـل مخلوق آخر!.. رغم ذلك ، فان أحدا لايدرى شيئا عن تلك « اللحظات القاسية » التى تستمع فيها أم كلثوم لغناء أم كلثوم !.. فى أى من حفلاتها ، يحرص ابن أختهـا المهندس محمد الدسوقى على أن يسجل الحفل من أوله لآخره .. وعندما تنهى أم كلثوم وصلتها الاخيرة ، تطير الى البيت مباشرة .. لاتأكل شيئا رغم جوع النهار ، فهى لا تتناول يوم الحفل اى غداء أو عشاء !.. فقط تشرب كوبا من عصير فاكهة الموسم ، وأذناها على شريط تسجيل الحفل ، تسمع نفسها .. ملهوفة لهفة..كأنها تلميذة صـغيرة تبحث عن اسمها فى مواكب طويلة من أسماء الناجحين !

أى فرق ــ يا ترى ــ بين أحاسيس أم كلثوم وهى تغنى ، ومشاعرها وهى تستمع لغنائها ؟ !

تقول أم كلثوم : « تغمرنى السعادة وأنا أغنى.. لكن عندما أستمع لنفسي ينتابنى الضـــــيق ! لماذا ؟ لأن « عملية » الغناء نفسها متعة وسـعادة لى .. لـكنى عندما أستمع لغنائى، أتحول الى ناقدة محايدة ، وأخشى أن أقول : قاسية !.. وتتملـكنى الهواجس الفنيـة وأنا أسمع : هذه الجملة كنت أستطيع أن أؤديها بطريقة أفضل . ماذا لو كنت قد رفعت طبقة صوتى هنا الى أعلى « الجواب » ، أو خفضته هنا الى عمق «القرار» ، وتظل كلمة « لو » على لسانى تعذب وجدانى ! »

ولأن أم كلثوم مجتهدة دائما ، كتلميـذة فى ليـالى الامتحان .. ولانها متقنة دائما تعشق التجويد وأسبابه ولانها كانت تعمل لفنها كأنها تعيش أبدا .. لهذا كانت

تتعلق نفسيا بالمستقبل وتظل دائما عليه .. «يعجبنى الليل ، والقمر فى السما هلال ! اشمعنى ؟ لان الهلال له مستقبل ، منظره فيه طمـوح كده ووعد بالنمو .. بيوعدني دايما انه حيكبر بكره !.. وانا احب الاشيـاء طموحة ، ولها مستقبل ! »

ولأن أم كلثوم تعتبر نفسها « تلميذة » فى حالة اجتهاد مستمر .. ولأن لـكل تلميذ عادة أساتذة يضعهم فى محراب عقله .. من هم اذن أساتذة أم كلثوم ؟

تعترف أم كلثوم للصديق الناقد الشاب رجاء النقاش فى حـديث خاص : « أول أســـاتذتى هو القرآن ! حفظته ، جودته ، رتلته بكل طرق القراءة المعروفة ، تعلمت منه سلامة مخارج الالفاظ .. وسلامة النطق « أبجدية » مهمة جدا لأى صوت يغنى ، أو يخطب فى الناس أيضا ، فان الصوت الذى لايعرف كيف يخرج الالفاظ بحروف سليمة ، فانه لا يصل الى قلب المستمع وعقله ، ويسقط خارج اذنيه !

« أضف الى ذلك ان فى آيات القرآن موسيقيـــة لفظية أصيلة .. من يتذوقها يقيس عليهـا دائما ولا يسلوها ! هذا بجانب ما أخذته عن القرآن من عمق فى عقيدتى ، ومعايير صادقة وصالحة لمعاملاتى مع الناس»

... والاستاذ الثانى ؟

تواصل أم كلثوم اعترافها : « انه أبى ! فهو أول من اكتشف موهبتي الصوتية ، وبفطرته السليمة تعهد صوتى ورباه على أسس اكتشفت فيما بعـد أنها من أرقى الاسس العلمية لتربية الاصـــوات فى معاهـد الموسيقى !.. كان يفرض على كل يوم : تمرينا صوتيا على التواشيح والابتهالات القديمة ، تدريبات رياضية عنيفة تقوى صدرى ورئتى .. والصدر السليم تنفس سليم .. غناء سليم !.. وبعد التدريب العنيف كان أبى

يعطيني بيده كوبا من اللبن الممزوج بالبيض النيىء والسكر النبات !

« ان أبى هو الذى ساعدنى على حفظ القرآن ، وتفهم معانيه ، ولهذا حفظت القرآن وفهمته أيضا ، وكثيرون حفظوا القرآن فى سن مبكرة دون أن يفقهوا فى معانيه شيئا !.. وفى كلمة : لقد كان ابى أول راع لطفولتى الفنية » .

... ماذا عن الاستاذ الثالث فى محراب عقل سيدة الغناء ؟

تقول أم كلثوم : « انه الشيخ أبو العلا محمد .. أعظم من لحن القصيدة ، ومن القصائد التى لحنها لى فى أول شبابى الفنى : « وحقك أنت المنى والطلب » و « أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا » ، و « الصب تفضحه عيوبه » ..

« سنة كذا وعشرين ــ ! ــ أول ماجئت الى القاهرة مع أبى وأخى الشيخ خالد ، نزلنا فى لوكاندة «جوردون هاوس » فى شارع عماد الدين ، شارع الفن ايامها .. هناك التقيت بالشيخ « أبو العلا » لاول مرة ، وسهرنا كلنا حتى طلع النهار ونحن نستمع الى الحانه الشرقية الصميمة .. وما أكثر ما سهرت بعد ذلك أدرس عليه وأتعلم منه . ان الشيخ « أبو العلا » هو راعى شبابى الفنى الاول ! »

... والاستاذ رقم ٤ بين أساتذة « الاستاذة » أم كلثوم ؟

أم كلثوم تنهى اعترافها : « أحمد رامى ، رامى صديقى ، وزميل طريقى . لكنه أيضا أستاذى ! .. مع رامى قرأت الشعر العربى بكل عصوره من الجاهلية للآن . كان يعمل فى دار الكتب . وكان ينتقى لى أنفس

دواوين الشـــعر القديم ويعيرها لى ، فأقرأها ، ثم نناقشها معا .. واصبحت قراءة الشعر هواية عمرى المفضـلة : اقراه لاتثقف . واقراه لاستمتع . واقراه لاختار واغنى . ثم : أقراه لانتخب أجمل الابيات فى كل لون من الوان الشعر ، واحتفظ بها لأعيد قراءتها بلذة وتذوق من حين لحين . ولى مختارات من الشـــعر احتفظ بها ، تزيد على الف بيت من روائع الشـعر العربى فى كل العصور ! »

... اذا كان هؤلاء هم الاساتذة الاربعة الـكبار فى محراب عقل أم كلثوم .. فمن هو ــ عنـدها ــ المثـل الاعلى أو « الاستاذ النموذج » للانسانيـة كلها ؟

تجيب أم كلثوم : « المثل الاعلى عندى مثلان .. من الرجال : محمد بن عبد الله ، سيد المرسلين وخاتمهم .. فهو نموذج علوى للانسانية المؤمنة ، والسلوك الصادق الشفيف ، والضمير اليقظان ، والارادة التى يلين لهـا الحديد !

« ... ومن النساء : السيدة خديجة زوجة النبى ، فهى مثال للانسانية النسائية الرفيعة ، فى سيرتها : بطولة الروح وقوة الشخصية ، وضعف الوفاء ! »

***

وأم كلثوم تعامل المـال بحرص العقلاء واعتدالهم . لـكنها زهدت الفلوس تماما منـذ عدوان « يونيو ــ حزيران » ، وتنازلت عن أجرها فى جميـــع حفلاتها للمجهود الحربى المصرى ، ولرجال الـكفاح الفلسطينى المسلح ، الى أن تزول آثار العدوان .

وهى لا تحب سيرة الفلوس ! فلوسها ، ممتلكاتها ، ما تدفعه من ضرائب .. « ملحوظة اعتراضية : عن سنة ١٩٦٦ ــ مثلا ــ دفعت أم كلثوم : ٢٤٫٥٠٠ جنيه

ضرائب متنوعة ، وهي تتقدم باقرارها الضريبى قبل موعده .. كانت دافعة ضرائب مثالية ! »

... حتى الفلوس التى جمعتها للمجهود الحربى ـ يقترب الرقم من المليونى جنيـــــه ! ـ لا تحب ان تذكر رقمها .

سألتها مرة عن رقم ما جمعته للمجهود الحربى ، أجابتنى : « لا وحياتك .. بلاش أرقام . اذا كانت المبالغ اللى جمعتها قليلة ، لازم تكتر .. واذا كانت كتيرة ، لازم تكتر أكتر واكتر .. المهم : كله مننا .. ولنا ! »

لكن معلوماتى : ان خلاف امكلثوم الشهير مع رياض السنباطى منذ عدة سنوات كان لأسباب مالية ! وانها ، بجانب تنازلها عن اجرها فى الحفلات للمجهود الحربى، فانها تحتفظ لنفسها بأجرها عن طبع اسطواناتها ، وبعائدها السنوى من حقها فى الاداء العلنى لأغانيها .. والا ، فمن أين تعيش ، وتعول من تعول ؟ !

سنة «كذا وعشرين! » .. جاءت ام كلثوم من قريتها « طماى الزهايرة » بدلتا مصر ، لتزور القاهرة لاول مرة . كانت تدخر ١٥ جنيها هى كل تحويشة صباها، لكى تشترى بها من سوق الموسكى : الملون ، والمشجر، وكل أذواق العاصمة من الاقمشــــــة والعطور والحلى الفالصو ! والمبلغ صرته بعناية فى منديل .. ثم .. ضاع المنديل !

... كانت لحظة قاسية ، تصفها أم كلثوم بكلماتها : « حسيت ساعتها انى أشقى واتعس بنت فى الدنيا ! ويومها ، نزلت مع أبويا نزور الهرم ، ماشفتش الهرم. الـ ١٥ جنيه كان منظرها أمامى ساتر أخضر معتم حجب عنى ضخامة هرم خوفو » ! !

والكتاب معلم ، يشكل شخصية الانسان و «يدرفل ذهنيته .. فما تقرأه تكونه ، وتتأثر به حتى العظام.. عظام جمجمتك طبعا !

... وليست المحاولة أن أحصى قرارات أم كلثوم ، كما ونوعا .. فقراءاتها كثيرة ، متنوعة طولا وعرضا وعمقا ، فى بحور الشعر. الاسلاميات. والسيرة النبوية بتخصيص . القصة بأطوالها : قصيرة ، أوطويلة ، أو رواية. دراسات السير الذاتية «البيوجرافى» الجادة ، لشخصيات متفوقة ومؤثرة فى التاريخ ، والقليل جدا من كتب السياسة والساسة !

... عن كاتبها الذى ترتاح على صفحات كتبه وفكره ، تفصح أم كلثوم وهى تجيب :

« الدكتور طه حسين ...لا أحد « يطربنى » مثله ، ومثل فكره المبصر ، اللامع كصفو النيل فى ضوء القمر! ومن فرط حبى للشعر ، أحببت نثر طه حسين ! ففى نثره رقة الشعر ، وموسيقاه ، وأخيلته العميقة التى تتسلل الى الفهم بعذوبة ، ودون ارتطام أو اقتحام !

... يتصل فكر أم كلثوم ، فتواصل : « أيام طه حسين بأجزائها الثلاثة ، هى فى حقيقتها ملحمة من القصائد الباهرة : قصيدة عن القرية ، قصيدة عن بكارة الطفولة ، قصيدة عن الحرمان وجفاف الحياة ، قصيدة ــ رغم كل ذلك ! ــ عن الامل !.. قصائد .. قصائد كلها ، أيام طه حسين ! » .

بجانب التربية ، أو ما يسميه علماء الاجتماع « النشأة فى البيت » .. اى العوامل يشكل شخصية الانسان ، وينميها ؟

... لاشك انه : السفر ! السفر مدرسة تعلم ، مدرسة مفتوحة بلا اسوار تثير فيك نوازع التمرد

والتحدى ، فتهرب عبرها قفزا !.. تلامذة المدرسة والجامعة ـ تربويا ـ لا تكفيهم الحصة أو المحاضرة .. يستكملونها بالرحلة !.. وأرقى المدارس الامريكية الآن وأغلاها مصروفات ، تجدها فى سفن عائمة تجوب بتلاميذها بحار المعرفة حول العالم !.. وفى « مدرسة السفر» ـ وما أكثر أسفارها ـ ماذا تعلمت أم‌كلثوم ؟

أم كلثوم تتحفظ أولا : « انا ضد السفر للسفر ! أو السفر لمجرد المتعة والتصييف !.. ان كان على الصيف ، فمصايف مصر أجمل مصايف الدنيا .. وأنا كل سفرياتى لبلاد برة ، اما للعلاج ، أو للغناء ! » .

... وهى بعد هذا التحفظ تجيب على السؤال : « فى كل مرة أسافر برة وارجع ، أنزل من الطيارة ودقات قلبى هتافات تسبح باسم بلدى مصر أم الدنيا وأبوها الشرعيان ، بالميلاد . ميلاد الحضارة . وتاريخ هذه العلاقة الشرعية عمره ٦ آلاف سنة ! مصر أم الرخاء والطعام لكل معدة ! أم الجمال والطبيعة الآسرة والناس الابكار ، الذين لم تفض بكارتهم بعد مداخن المصانع ، رغم موج التصنيع الزاحف ! »

... «بيتهمونا فى أوربا وأمريكا اننا «بلد البقشيش» ، أو « البكشيش ياخواجا » !.. اتهام كاذب من أساسه أو بالقليل ، اتهام مبالغ فيه جدا !.. أى سواق تاكسى فى القاهرة يشكرك ويقبل ـ من القبلة ـ فلوسك التى تدفعها آخر المشوار حسب رقم العداد.. واذا استفتح بك ، أو كانت التوصيلة طويلة ، فانه يدعو لك بسعة الرزق ويعاملك بود أكثر !.. تروح نيويورك تلاقى سواقين التاكسى «بهوات» جدا ، و «نماردة» جدا .. مرة فى نيويورك أعطيت سائق تاكسى من التاكسيات الصفراء اياها ٦ دولارات ـ حوالى ٣٥٠ قرشا مصريا ـ بقشيشا

فوق اجرة العداد .. امسك الدولارات وراح يمـدها تحت عينى بقرف وامتعاض ، ثم ضغط على دواسـة البنزين بعنف .. ولا كلمة شكر ! ! »

... وتواصـل أم كلثوم : « ناطحات السحاب فى نيويورك لم يحرك منظرها القائم شعرة فى راسى !.. هرم خوفو عندى اكثر جلالا من « الامبير ستيت » ! والسد العالى فى أسوان يساوى عندى ٥ مدائن مثل نيويورك! وبالعـكس ، راديو الترانزيستور الذى يضـمه الـكف ويستمع اليه العقل والوجدان ـ رايى ـ هو خلاصـة المدنية ! » .

... « لـكن أشياء كثيرة فى الخارج بهرتنى : الطرق الطويلة غير المتقاطعـة ، أو ما يسمونه « هاى ويز » الريف الامريكى . الغابة السوداء فى المانيا . مسرحيـة «ماى فيرليدى» فى لندن ! متـاحف باريس ، اللوفر وغيره ، وبهرنى عموما ذلك الاهتمام الفرنسى الملحوظ بالابقاء على كل ماهو تاريخى والاحتفاء به .. الفرنسيون ورثة طيبون لاجدادهم ! » .

... ومن « مدرسة السفر» ، عند أم كلثوم درس نستفيده : « فى أوربا وأمريكا شفتهم يحبون العمل ، لدرجة العبادة ! الشبان هناك يعملون فى أشق الاعمال واحقرها ـ بمقياسنا الشرقى ! ـ باقبال ولا تأفف ! أبوه مليونير ، أبوه مستور الحال .. لـكن الابن يعمل غالبا !.. يشترى كتب المدرسـة ويدفع مصروفات الجامعة من عرق ذراعه ! يسافر فيدفع لنفسـه ثمن التذكرة ، قطارا كان أو طـائرة !.. صحيح انه ليس محتاجا الى الفلوس لياكل ويتعلم .. وفى اسـتطاعته ببساطة أن يترك عبء كل شىء على العـائلة . لـكنه يريد ان يحقق ذاته .. وأن يشعر برجولته واستقلاله

الاقتصادى عن العائلة ، مع أن شبابه مازال فجرا ! »
... « العمل اذن ليس عيبا ، العيب فى الاتكال ، والتوكل على غير الله ، والاشتراكية التى تنادى بها ـ دينا ودنيا ـ هى ببساطة : أن يشارك كل واحد فى حياة مجتمعه ، بأخذ دوره فى العمل والانتاج .. ويأخذ أيضا حقه فى عائد هذا العمل والانتاج !.. اذكر هنا حديثا عن النبى الكريم ، عندما سأل رجلا : « أين اخوك ؟ » أجابه : « انه يصلى ليل نهار ! » .. فعاد النبى يسأله : « ومن يزرع الارض ؟ » أجابه الرجل : « أنا يارسول الله » .. قال محمد صلى الله عليه وسلم : « والله انك لأفضل عند الله من أخيك » ! !

***

نتوغل معا أكثر فى شخصية أم كلثوم الفنية .. ان شخصيتها الفنية تظهر معبرة ملونة : نهار حفلة تقيمها .. ومساء ذلك النهار .. ثم ساعات الليل التالية للحفلة ـ الاصدق : ساعات السحر ! ـ بعد أن تعود الى بيتها فى شارع « أبو الفدا » على نيل الزمالك بالقاهرة ، وفى وجدانها حس باطنى منتش بالسعادة والقلق معا !

... أم كلثوم تستيقظ أى صباح ـ عادتها ـ فى السابعة تماما .. لكنها نهار الحفلة تتأخر فى النوم ٤ ساعات أو أكثر ، تستيقظ حوالى الحادية عشرة .. لعلها تأخذ من النوم أكثر مما يجب ، استعدادا لسهر وجهد أكثر مما يجب !

... ولا فطور . لاطعام يدخل فمها طول النهار ، غير كوب من عصير فاكهة الموسم .. وان اكثرت كوبين ! ثم يجيئها حلاقها الخاص يلف لها شعرها بطريقة كلاسيكية لا تتغير خطوطها كثيرا .. يلفه على البارد . لا نار ، ولا « ميزامبليه » !

... لحظات انتظار متململ ، كأم ترقب باللهفة والتوجس ساعة ولادتها !.. شاردة كأنها سقطت فى بئر من الفكر ! قد تطلب احدا على التليفون ، فاذا جاءوها به على السماعة .. تساءلت : « مين ده اللى على التليفون » ؟ ! .. قد تقرأ من الصحف عناوينها ، ثم تكومها وتنحيها !.. ما تكتبه الصحف وهى تزف أغنيتها الجديدة لايهمها مطلقا أن تقراه ، قبل أن تغنى الاغنية .. لكنها تقرأ بعناية كل سطر يكتب عن نفس الاغنية، بعد أن تغنيها ! ؟

أم كلثوم تفسر هذا اللغز : « شوف .. كل ما يكتب عن أغنية لى قبل ان أغنيها ، لايمكن ان يكون نقدا لفنى !.. ربما كان اعلاما ، أو تعريفا للناس بالاغنية الجديدة .. فلماذا اهتم أن أعرف عنها ، وانا التى ستغنيها ؟ ! »

... لحظات الانتظار المؤرق تمضى مع النهار .. يقطعها أداء الصلاة فور اذانها ، وتقطعها كذلك : «لعبة الصبر » ! .. ولعبة الصبر أو « السبع بنات » طريقة معروفة لـ « فتح السكوتشينة » او ورق اللعب .. وهى تلعب لعبة الصبر ، عادة ، كلما كانت فى حفلة الليلة أغنية جديدة !.. احيانا تصدقها اللعبة ، وتظهر لها من أول مرة أن الاغنية ستنجح .. واحيانا تخذلها !.. وعندئذ ، وبمنتهى التصميم ، تعيد ام كلثوم اللعبة مرة أخرى أو أكثر .. الى أن تسلم لها أوراق السكوتشينة — مكرهة ! — بأن الاغنية الجديدة سوف يصادفها النجاح !.. فى كل منا حبل سرى يتعلق فى نهايته بالغيب والمجهول ! !

... الطريق الى الحفل — مسرح الازبكية . سينما قصر النيل . دار الاوبرا . أو مسرح « أبو الهول »

الصيفي ! ــ تقطعه عادة فى سيارتها الكاديلاك الفضية اللون ، ذات الراديو والتليفزيون والتليفون والثلاجة بالكهرباء .. والتى سبق ان اهداها اليها حاكم الكويت! وهى فى الطريق مجرد عينين غانمتين . وراء نظارتها الطبية الداكنه . تتمتم بالفاتحة . اعظم سورة أنزلت فى القرآن .. وتتلوها بآية الكرسى .. وتقطع بين الاثنتين بوصلات من الصمت المتأمل !..

... والمنديل الحريرى فى يدها بلون فستانها ، يلازمها على المسرح ، كنت اتصور أن لمنديل أم كلثوم وظيفة ، وان وظيفته أن يمتص انفعال يدها وهى تغنى ويسيطر عليها ، فلا تتحرك الا بحساب واستاذية .. ومصيبة بعض مطرباتنا انهن يبالغن فى حركة اليدين والذراعين ، لدرجة ارتكاب « جريمة الرقص » .. بجانب الغناء !.. لكنه اتضح لى أن لمنديل أم كلثوم وظيفة أخرى، مختلفة تماما .. تقول أم كلثوم : «عندما أواجه جمهورى ، ينتابنى نوع من الاضطراب .. وكأنى تلميذة مبتدئة أواجه أول امتحان لى !.. واضطرابى هذا ــ بصراحة ــ يظهر فى صورة عرق ينضح من يدى.. والمنديل ــ ببساطة ــ لأجفف به عرق اضطرابى!! » بعد ٥٠ سنة من الغناء والتمرس على مواجهة المستمع. أم كلثوم تخاف من مواجهته ، لدرجة الاضطراب ، لدرجة العرق !.. انها الحساسية الفنية المفرطة التى تميز فنانة أصيلة مثل سيدة الغناء ، عن أى واحدة اخرى « تبيع الغناء » !.. فالمستمع عند أم كلثوم له وزن « السيد المهاب » !.. تخضع لأمره فى الحفل، أن طلب أن تعيد ، أو مزيدا من الترديد !.. وهى تقرأ بعناية نقده لها فى خطاباته الخاصة اليها ، فهو عندها الناقد الحى المحايد !

ولا شيء يستطيع ان يحول بين أم كلثوم وبين جمهور حفلاتها ، حتى المرض !.. تحكى ام كلثوم : « زمان شوية .. موسم ٥٧ .. ويجينى يوم الحفلة الشهرية حته زكام ! ؟ صعب على الفى الحفلة .. كيف أتخلف عن جمهورى ؟ ! وفى الميعاد. اخدت بعضى ورحت المسرح وانا لا أدرى ماذا افعل ، ولا كيف سأغنى !.. ووقفت على المسرح مقودة ، او كالمنومة .. ثم انفتح الستار.. وانفتح معه انفى وزال الزكام .. وانطلقت اغنى ! »

... والذى لم تقله أم كلثوم انها قدمت فى تلك الحفلة بالذات أغنية جديدة اسمها « غيرة » كلمات رامى ، ولحن السنباطى ، وانها ليلتهــا أنتابتها الــكحة عدة مرات .. وقال الناس بدهشـــة : « الله .. أم كلثوم بتكح ؟ ! » وصباح اليوم التالى لتلك الحفلة ــ فبراير ٥٧ ــ قلت لأم كلثوم بالتليفون :

* الناس استغربت لما كحيتى ــ لاول مرة فى تاريخك الفنى ــ وانت بتغنى ؟ !

أم كلثوم : وبيستغربوا ليه ؟ هو انا موش انسانة؟

* من غير شك .. انت كذلك !

أم كلثوم : ولى جهاز تنفسى جايز يصيبه البرد ؟ ! اهو انا بقى كان عندى برد ليلة امبارح .. ورغم كده غنيت... ولم يهن على جمهورى !

... ولقد نشرت كل ما سبق ــ فى حينه ــ فى مجلة « الاذاعة » القاهرية ، لاسجل لها لأى حد تعمل حساب مستمعها ... السيد المهاب !

سألت أم كلثوم ذات حفلة :

* بيضايقك « العمدة » بهتافاته ووجده ؟ !

... و « حافظ العمدة » أنت لاشــك سمعته .. لــكنك لم تسمع عنه : تاجر فاكهة مســـتور الحال ،

يعشق فن أم كلثوم ، يواظب على حضور حفلاتها اينما كانت ، منذ سنة ۳۰ ودون انقطاع !.. يقاطعها دائما بآهات اعجابه « والنبى كمان ياست .. ياست ياأستاذة الاساتيذ ! ».. و « عظمة .. على عظمة.. على عظمة!» كل ذلك بصوت يخرق طبلة اى أذن فى الحفلة . أو جنب الراديو !

... اجابتنى أم كلثوم : « يضايقنى ليه ؟ بالعكس ! المفروض الناس جايه تسمعنى علشان تنبسط ! » .

... وسألها الكاتب محمد التابعى مرة :

* يقولون انك تفضلين الجمهور الصاخب ، على الجمهور الهادىء الرزين .. لأن الاول يجعلك «تنجلين» فى الغناء ؟ !

أجابته أم كلثوم : « انا ؟ !.. وهل تصدق أن فنانا يرضيه أن يقطع أحد عليه انسجامه ؟ هل الجمهور وحده هو الذى يطرب ؟.. ان الفنان فى دوره لايقل استغراقا فى فنه ، عن الجمهور فى احساسه !

... ومع ذلك ، فالجمهور فى نظرى نوعان : نوع « يهتز » من الطرب .. ونوع « يتهازز » !.. أما ان يطرب الجمهور فيهتز ويعبر عن طربه ، بصورة من الصور المألوفة التى لا تفسد جو الطرب ، فذلك معقول .. لكن ذلك النوع الثانى .. النوع الذى «يتهازز» .. النوع الذى يثير الصخب فى هذا الجو الطروب.. فانه أعدى أعداء الفنان !

... لقد غنيت مرة لرجل واحد ! رجل ضرير، كان يجلس فى الصف الاخير ، فى احدى الحفلات .. وكان يطرب ويحس الغناء احساسا صحيحا .. غنيت له وحده طول الليل .. وكنت فى منتهى السعادة بهذا التجاوب ، بينى وبينه !!

أم كلثوم ، فى احدى حفلاتها ، لم تزل .. لماذا تنفعل

وهى تغنى كل هذا الانفعال ؟.. لماذا يتحول انفعالها بالمعنى الى اضـطرام يجتاح تعبير وجهها ، ويهتز له بدنها كله .. حتى ليتحرك البدن من حين لآخر، خطوة الى الخلف أو الى الامام ؟ !

... أم كلثوم ـ هنا ـ تجيب : « انا اتأمل معانى الـكلمات وانا اؤديها ، وانفعل بها كأنها احداث ساخنة فى حياتى !.. فيه عندك معانى فى أغانى تخلق عنـدى صورة فنية أستشعرها وانا اغنيها .. وترتسم امامى فى صورة ، بالضبط كصورة الـكاميرا !.. مثال ؟ اقول لك مثال .. لما اقول :

شمس الاصيل .. دهبت خوص النخيل ..
... يا نيـــــــــــل ..
تحفة .. ومتصـــورة .. فى صفحتك ..
... يا جميــــــــــــــل !

... كل هــذه التفاصيل الجمالية ، ترتسم أمامى وانا اغنى ، صورة بانورامية طبيعية !

... اغلق الستار، وانتهت حفلة أم كلثوم ، أم كلثوم فى طريق العودة الى البيت ، جوع النهار بطوله وأغلب الليل ، لايهم !.. المهم أن تطمئن ـ بنفسها ، لنفسها ، على نفسها ! ـ وهى تستمع بلهفة واستغراق لشريط الحفل المسجل .. كأنها تعيد امتحان نفسها !.. وكأن التصفيق الطويل لفنها لا يعنى استحسانا !.. وبكلمات أم كلثوم :

« حكم الغير على عملى الفنى ، قد يقنعنى .. لـكن حكمى الشخصى ـ وحـده ـ هو الذى يعطينى الراى اليقين » ؟ !

***

أن تسأل سيدة عن عمرها .. سؤال ـ عند نســاء

الارض جميعا ـ وقح وقاحة !.. لا يعادله فى وقاحته، من وجهة النظر الحريمى ، الا أن تسأل المرأة عن لون ملابسها الداخلية ! ..

... و « عمرك كام سنة ياست ؟ »

سؤال يجرح ، ويحرج ، ولهذا لم أجرؤ يوما على أن أوجهه الى أم كلثوم .. أيضا لم يجرؤ غيرى أحد ! لكن قصاصات الصحف القديمة تذكر لأم كلثوم حديثا أدلت به ـ يونية « حزيران » ٦٥ ـ الى جريدة «ديلى اكسبريس » البريطانية . فى مدخل الحديث يقول المحرر على لسانه : « ان أم كلثوم الآن فى الخامسة والخمسين من عمرها » .. وتواصل أم كلثوم الحديث بعد ذلك على لسانها : « سوف أظل أغنى حتى آخر يوم من عمرى » !..

... واذا صدقت الديلى اكسبريس ، فان أم كلثوم ـ بالحساب ـ تكون من مواليد سنة ١٩١٠ .. بعكس ما قيل بعد وفاتها من انها من مواليد ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ !

بيت متواضع من دور واحد وطوب أخضر ، فى قرية طماى الزهايرة بوجه مصر البحرى، شهد ميلاد أم كلثوم. وخضرة الزرع فى ريف مصر تزحف ، طبقا لعادة قديمة، على وجوه أهل الريف وسواعدهم وشما أخضرا.. لكن أم كلثوم نجت من ذلك الوشم اللعين ، والفضل لأمها السيدة « فاطمة المليجى » .. قروية بسيطة ، لكنها ذكية وواعية .. والذى حدث أن احدى الجارات من نساء القرية ، أخذت «خالد» شقيق أم كلثوم الاكبر الى صانع الوشم فى سوق القرية ، فدق له مساحات من العصافير ، والاسود ، وأسماك النيل ، على أنحاء متفرقة

من وجهه وذراعيه .. وعاد الصبى يبكى من الم وخز ابر الوشم ، وليس من كآبة الوشم الشائن.. وفى كعبه جاءت الجارة المتطوعه تبحث عن ام كلثوم الطفلة ، لتجرى لها بالمرة طقوس الوشم .. لكن الام انبرت مفزوعة تحمى ابنتها من تشويه أبدى .. ونجا جلد أم كلثوم من وشم العصافير ، وأسماك النيل !

« كتاب » الشيخ عبد العزيز .. أهم كتاتيب قرية طماى الزهايرة ، فهو يعلم جيدا وكثيرا ، ويقبض قليلا .. التلميذ بقرش صاغ فى الشهر !.. دخلت أم كلثوم الكتاب لتتعلم الحرف والرقم ، وتحفظ جانبا من أجزاء القرآن ، لكنها لم تكن موفقة فى دراستها .. اصطدمت بمقرعة سيدنا الشيخ عبد العزيز و «فلكته» وقسوته المؤلمة ، وهى من صغرها تكره الالم ، تكره أن تتالم هى ، أو يتألم الغير ! لهذا كرهت الكتاب وصاحب الكتاب وان لم تكره العلم والتعليم .. وقد كان من الممكن ان يحدث ذلك ، ويصبح التعليم عقدتها. ويقترن « الحرف » فى وجدانها بلسع العصا ، ولوحدث، لما قرات أمكلثوم بعدذلك قصيدة شعر ، ولا غنتها .. ولما قرات فى الادب والسير الذاتية بتذوق وتعمق .. ولما تعلمت اللغة الفرنسية حتى أجادتها !

... ولقد أفرزت أم كلثوم كراهيتها لكتاب الشيخ عبد العزيز وصاحبه ، فى صورة شقاوات صغيرة وذكية .. مسألة دفاع عن النفس !.. كان سيدنا الشيخ ، من حين لآخر ، يأمرها هى وزميلاتها بأن يذهبن الى بيته ليساعدن زوجته فى شئون البيت .. و « مرة » تحكى أم كلثوم : « كنا نشارك امرأة الشيخ فى تنقية قمح الطحين ، تذكرت قسوة الشيخ وعيناى تفرزان حبات القمح على الطبلية ، والحت على فكرة الانتقام..

ليه لا؟ ! همست لزميلاتى مصدرة تعليماتى بأن يحتفظن بحبات البخر والطين التى يلتقطنها من أكوام القمح .. انتهينا ، وانفرجت أسارير زوجة الشيخ معلنة رضاها عن مجهودنا ذلك الضحى .. لكنى غافلتها لحظة الانصراف وبعثرت على أكوام القمح النظيف كل حبات البخر والطين التى جمعناها ! »

***

فى بيت عمدة القرية « فونوجراف » قديم .. تترامى منه أصوات الغناء بلا انقطاع ، من أصيل كل يوم حتى نهاية السهرة فى القرية ، عقب صلاة العشاء !.. وطوال « فترة الارسال » هذه ، وآذان أم كلثوم رادار موجه الى دوار العمدة !

وفى البيت .. الشيخ ابراهيم ، أبوها منشد الموالد الرقيق الحال ، يلقن شقيقها « خالد » أصول فنه . وأم كلثوم تسمع وتشبع !.. فى مرة ، تعثر خالد فى ترديد توشيح من التواشيح القديمة التى كان يلقنها له أبوه .. فقفزت الصبية أم كلثوم من مكمنها كقطة جائعة فى اتجاه سمكة : « والنبى يابا أقول أنا .. بس اسمعنى ؟ ! » .. وهس سمع ، الاب استمع ، انبهر، اكتشف ، لأول مرة ، الكنز الخبىء بين يديه ! ..

... لحظة غير فيها نهر حياة أم كلثوم مجراه .. فالشيخ ابراهيم قرر بيقين وحماسة ان تصاحبه ابنته فى الموالد والافراح ، ضمن بطانته ، لكنها بنت ، وهو ريفى ، والتقاليد عقبة ، كيف يتخطاها ؟ ! بذكاء ، لملم الرجل شعر ابنته تحت كوفية وعقال ، والبسها جلباب صبى ، وعليه بالطو أصفر أحيانا ، وأحيانا كحلى اللون .. وانطلق « الولد أم كلثوم » الى الافراح يغنى!

... هذه السنوات من « الذكورة المصطنعة » ، أثرت

فى حياة أم كلثوم ـ تاليا ـ تأثيرا عميقـا حتى نخاع العظـام !.. فبملابس الولد خالطت أم كلثوم الرجال بندية ، واكتسبت منهم باللاوعى صفات أخلاقية كثيرة: حب التحكم والميل للقيادة والسيطرة ! الكلمة الواحدة النافذة بغير تراجع ! الـكبرياء ، والانف فى السماء ! أيضا أثرت فيها ذكورتها المصطنعة ، فانامت فى وجدانها كل مطالب الانوثة. فلم تتزوج الا فى سبتمبر سنة ٥٤ !

سنة ٤٢ ، سألوا أم كلثوم : لماذا لا تتزوجين ؟

أجابت أم كلثوم : « أخذنى كفاحى من أجـل فنى ، فأنسانى أن أتزوج ، بل لعلنى لا أصلح لأن أكون «ست بيت » بالمعنى المفهوم عندنا فى مصر ! .. والصدق معها خصوصا فى الشـطرة الاخيرة من هـذا الاعتراف .. فأم كلثوم ، مثلى ، لاتجيد من أعمال المطبخ شيئا بالمرة !

وعادوا فسألوها عن رأيها فى الدنيا .. بلا رجال ؟ !

أجابت أم كلثوم : « تكون دنيا ناعمة ، مليئة بالعفة! أيضا ، تزول الحرب ! ويخلو الغناء من كلمات الغزل ! وتتغير ، فى دنيا السياسة ، طريقة الحكم ! »

ثم سألوها عن الحب ؟

قالت بلا مجاملة : « قد يكون الحب مصدر سعادة ، أو نبع شقاء ، ولا شىء وسـط ! لـكن الحب دائما كالطفل العابث المدلل الشرير ، من طبيعته يستبد بفرض سلطانه !.. ولو قدر لى فى يوم من الايام أن ألقى هذا الطفل العابث « كيوبيد » لأوسعته ضربا ، حتى يكف عن عبثه واستهتاره !.. »

... لـكن الشائعات لم تترك أم كلثوم لعذريتها ، وانما طاردتها بالعرسان !.. زوجتها الشائعات على مر السنين بشخصيات كبيرة كثيرة .. النبيـل السـابق

عمرو ابراهيم! الشاعراحمد رامي! المثال محمود مختار، صاحب التمثال الاشهر « نهضة مصر » ! الشيخ عبد الرحيم بدوى صاحب « مطبعة الرغائب » ! وفقيه القانون المدنى المرحوم الدكتور عبد الرزاق السنهورى!

... وفى أوائل الخمسينات ، ارتبطت ام كلثوم مع محمود الشريف ملحن « الله أكبر» بفكرة الزواج .. لكن الفكرة قلعت قبل أن تزرع !.. ثم جاءها النصيب فى يونية « حزيران » سنة ٥٤ : دكتور حسن الحفناوى أستاذ الامراض الجلدية بكلية طب قصر العينى، صعيدى من مواليد اسيوط فى ٨ اغسطس سنة ١٥ ، متزوج سابق . وله أولاد . عاشق لفن أم كلثوم . ولشخصها أيضا !

***

اول أجر قبضته أم كلثوم فى راحة يدها ، كان روبية واحدة !.. الروبية ، تلك الايام القديمة ، عملة مصرية تعادل ٦ قروش .. تقاضتها عن غنائها فى ليلة فرح بالسنبلاوين ، مدينة تبعد عن قريتها ساعة بالحمار!.. وقدظلتأم كلثوم قابضة يدها على الروبية بحرص من يحوز ماسة « الكوهينور » ، الى أن عادت الى أمها فى البلد تهلل : « أم .. خدى منى يام ! »

... وأكبر أجر تقاضته أم كلثوم خارج القاهرة ، كان ١٤ الف جنيه استرلينى عن حفلتيها فى ليبيا ، وكما ذهبت الروبية الى أمها ، ذهبت الـ ١٤ الف استرلينى أيضا الى أمها مصر !

وأول مرة تكحلت فيها عيون أم كلثوم بزيارة القاهرة، كانت خريف سنة ١٨ .. عز الدين «بك» يكن يملك ضيعة قرب طماى الزهايرة. قرية أم كلثوم. سمع بها. ارسل يطلبها لتشارك انشادها فى احياء ليلة الاسراء ،

والحفل فى قصره بحلوان ، رآها « البك » من هنا ، وملأته الدهشة وخيبة الامل .. « هى البت المفعوصة دى اللى حتغنى ؟ ! » .. وارسل يستدعى الصييت القديم الشيخ اسماعيل سكر .. وجاء الشيخ لينقذ ليلة الاسراء فى بيت البك الكبير !..

... والليل انتصف ، والحاضرون ابتلعوا من تواشيح الشيخ سكر حتى امتلأوا .. واقترح صاحب الحفل على مدعويه أن يستمعوا للصبية أم كلثوم من باب الفكاهة والتنويع ليس الا !.. وغنت الصبية كما لم تغن من قبل ، احست بالاهانة والتحدى ، فاجادت وتسلطنت ! وطرب الجميع .. حتى الشيخ اسماعيل سكر الذى جاء لينقذ الحفل ، طرب وانتشى ، وقاطعها وهو يستزيد ويطلب أن تعيد !

وبعد شهور ، عادت أم كلثوم الى القاهرة لتحيى فرحا متواضعا فى حى « كوم الشيخ سلامة » .. حى مكانه على خريطة العاصمة ، لا أعرفه بالضبط ؟.. ثم جاءت اليها سنة ٢٠ ، هذه المرة لتقيم وتشق لفنها طريقا .. أول حفلة عامة لها أقامتها فى سرادق على ناصية شارع الدواوين بالسيدة زينب ، نجحت نجاحا! تردد اسمها فى شوارع القاهرة وبيوتها ، هكذا بالنقل من فم لأذن ، ودون أى دعاية مكتوبة أو مسموعة !

... بعدها ، التقطها متعهد الحفلات « المعلم صديق» وقدمها على مسارح « دار التمثيل العربى » و « الكورسال » و « سينما فؤاد » . أرقى مسارح شارع عماد الدين ، كانت ما زالت تحتفظ بالزى الرجالى : العقال والجلباب الفضفاض الذى يخاصم تفاصيل الجسد فلا يقترب منها ! والبالطو الكاكى ، أحيانا كحلى اللون ! وكانت تنشد على الطريقة «المو الدية»

وحولها بطانة من المشايخ يرددون .. أحيـــــانا يدوى التصفيق فى القاعة ، فينبرى شيخ من أفراد البطـانة واقفا ، يبتسم ويرد التحية وكأنها موجهة اليه !

وسنة ٢٦ ، نقل نهر أم كلثوم الفنى مجراه نقـلة هائلة : استغنت عن بطانة المشايخ واستبدلتهم بتخت الآلات الموسيقية أيضا ، خلعت العقال والجلبــــاب الفضفاض ، ولبست الفستان ، صحيح أنه كان دائما فستانا آية فى الحشـمة .. انما يكفى أنها كشفت صراحة عن « أنوثتها الفنية » !.. أضف الى ذلك أنها بجانب الوشح ، بدأت تغنى القصيدة والطقطوقة ..

... بالطبع لم تستطع أم كلثوم أن تقاوم ــ فى دفعة واحدة ــ تيار الذوق الفنى المنحل الذى اجتاح الجماهير المصرية ، أعقاب نهاية الحرب العظمى وانطفاء الحطب فى موقد ثورة ١٩ !.. اضطرت أن تساير فى البـداية بطقاطيق مثل : « ياست ليه المـكايدة » و « قال ايه؟ حلف مايكلمنيش ! » .. ثم ارتفعت بالتدريج الى مدارج الفن الرفيع ، وقدمت قصائد من الغزل الرقيق مثل : « وحقك أنت المنى والطلب » و « أراك عصى الدمع » فى لحنها الاول ، و « مالى فتنت بلحظك الفتاك ! » ..

... وبعدها ، انطلقت أم كلثوم تحلق بأجنحة خيال رامى ، وألحان داود حسنى ، محمد القصبجى ، زكريا أحمد ، ورياض السنباطى .. أعطاها القصبجى ألحانا ذات نغمات مديدة وترجيعات طويلة .. ولم يكن هـذا أول عهدها بالمد والترجيع الطويل .. فقد كانت أغانيها التى سبق أن لحنها لها الدكتور صبرى والشيخ أبو العلا فى العشرينات ، حافلة بالنغمات العالية التى تركب ذرى الصوت أو « الجواب » ، ولا تهبط الى «القرار» الا لتحتشد وتواصل الصعود الى الذروة مرة أخرى!

وبعد القصبجي كمرحلة ، جاء السنباطى ليواصل مع أم كلثوم رحلة النغم والشدو الآسر .. وأول لقاء بين أم كلثوم والسنباطى ، لم يكن فى القاهرة .. كان فى قرية « قرين . دقهلية » . كانت تحيى مع أبيها فرحا. وكان هو الآخر مع أبيه ، ينافسها فى احياء نفس الفرح! كان السنباطى ، أيامها ، يغنى ! وهو يغنى للآن مازال ، لكنه لم يعد ــ فى اعتقادى ــ يحوز اعجاب الكثرة كمطرب فقط !..

... وباعد الزمن بينهما سنين ، ثم التقيا صدفة سنة ٤٤ ، فى مقر شركة بيضافون للاسطوانات بالعتبة الخضراء .. هناك اتفقا على أول عمل مشترك لهما ، فكانت اغنية « ياطول عذابى » .. على أن السنباطى لم يلحق بأم كلثوم فى قمتها ، الا عندما لحن لها «سهران لوحدى » .. وسهر الناس يسمعون أول قمة من قمم « أم كلثوم ــ السنباطى » ... وبعدها ، تتابعت القمم !

***

أما عبد الوهاب ، فحكايته مع أم كلثوم حكاية تروى

... والدنا الكبير الكاتب فكرى اباظة يتذكر : « أيام شبابى من الدرجة الاولى ــ فأنا الآن شاب من الدرجة الثانية ! ــ عزمنا على ما أذكر مورو باشا .. الدكتور عبد الوهاب مورو .. وكانت العزومة محندقة، والصحبة جميلة : أم كلثوم ، وعبد الوهاب ، وتوفيق الحكيم ، والمرحوم كامل الشناوى ، والمرحومة كاميليا النجمة الذرية قبل انتشار الذرة ، والتى فتنت بشفتيها حواس الرجال فى الخافقين !..

... احلوت السهرة ، وشعشع الانسجام ، عندما مالت أم كلثوم على المرحوم كامل الشناوى وقالت له

تعاتبه : أيه رأيك فى كاميليا ؟ جمالها حرك الجبال .. وأنت ؟ !

... وتحرك المرحـــوم كامل ــ ١٤٥ كج ــ وكان رحمه الله أحيانا يتحرك !.. ورد بأبيات من قصيدة يبدو انه كان قد بدأ ينسجها فى قريحته منـــذ بدأت السهرة .. تمتم :

« لست أقوى على هواك .. ومالى
« أمل فيك .. فارفقى بحياتى .
« ان بعض الجمـال يذهب قلبى .
« عن ضلوعى.. فكيف كل الجمال ؟ !

... وصفق الجميع استحسانا لرقة الشاعر فى كامل الشناوى .. ما عدا عبد الوهاب ، الذى أعلن انه مستعد لتلحين القصيدة الآن ، قبل أن يبرد الجمال فى تعبيرها ! وتشجعت أم كلثوم فأعلنت أنها على استعداد لأن تغنى القصيدة فى التو واللحظة ، اذا لحنها عبد الوهاب ! وحصل .. وظلت أم كلثوم تغنى « لست أقوى على هواك » بلحن عبد الوهاب .. ليلتها ، سرقتنا النشوة، حتى أدركنا الصباح ! »

أن يلحن عبـد الوهاب لأم كلثوم لحنا معلنا ، أمر ظل بعد ذلك سنين « تهمة » يتبـادلها الطرفان على صفحات الصحف !.. وأصبحت التهمة « قضية » ، اخيرا حكم الاثنـان فى القضيــة ــ فبراير ٦٤ ــ وجاء الحكم : « انت عمرى » !

ولم يكن أول لقاء « كلثومى ـ وهابى » ثمرة ترتيب من أى نوع ، الا ترتيب القدر !.. فلولا ذلك الشــاب المجنون الذى « فتح » جبهة عبد الوهاب صيف ســنة ٦٣ بشقفة من فخار وهو واقف ينتظر المصعد فى مدخل العمارة التى يسكنها بالزمالك .. لولاه لما كانت « انت

عمرى » !.. لولا أن عبــد الوهاب أصيب ، وكانت اصابته تحتــاج لجراحة « عدة غرز » ، لمــا ذهب الى مستشفى الكاتب .. ولما زارته أم كلثوم فى المستشفى ولا أعطته كلمات أحمد شفيق كامل ، ليلد لها أول لحن لأول لقاء فنى مذاع بينهما !

... وقد هاجت الصحف العربيــة ـ والقــاهرية خاصة ـ تعليقا على « أنت عمرى » .. نشرت عنهــا صحف القاهرة وحدها ، فى أسبوعين فقط : ٧٥ خبرا و٣٠ مقالا وتحقيقا صحفيا !.. قال عنها المرحوم محمد القصبجى :« عمل موسيقى كبير!» وقال كمال الطويل : « بعض النــاس كان ينتظر من عبد الوهاب معجزة موسيقية .. لـكنه قدم لحنا جميلا فقط ! » ومحمد الموجى قال أيامها : « اللحن فى مجموعه ليس معجزة.. وليس الامل الذى كنا نترقبه ! » .. وقال بليغ حمدى: « عبد الوهاب لم يفعل شيئا .. وأم كلثوم هى أم كلثوم!» أما فريد الاطرش فقد نظر كعادته الى مرآة ذاته .. وقال متضخما ! : « عبد الوهاب دعم رأيى وطريقتى فى التلحين.. وهى المحافظة على اللون الشرقى الاصيل!» بينما قال المرحوم كامل الشناوى : « هذا كسب لفن الاغنية ! »

... وتطوح عبد الوهاب بعد ذلك. فى الحانه لام كلثوم بين الاجادة والاعادة !.. الى أن جاء لحنه « هــــذه ليلتى » فى ديسمبر ٦٨ .. وقد كان ، فى اعتنــاقى ، لحنا عاديا من كل وجه وبكل قياس : موازير وتراكيب ووحدات موسيقية جميلة وغريبة .. لكنها مرصوصة ومتستفة مثل صفوف من مكعبات الاطفــــال باهرة الالوان !.. لحن . للحقيقة الفنيـــة وحدها قش ! انما قش جميل براق ، مثــل القش الايطالى !.. أما

أم كلثوم ، فكانت تحت القش الطليانى ماسة مشعة بأشعة غلابة !

... عبد الوهاب أخيرا ، كانت اجمل أمانيه — والعهدة على الراوى الصديق صالح جودت ! — ان ينقل الى أم كلثوم ايمانه بالاغنية القصيرة ، ١٠ دقائق على الاكثر ، من لون وطول « يا ليلة العيد انستينا » مثلا .. وأن تسجل أم كلثوم كل سنة دستة من هذه الاغانى القصيرة .. أو الاغانى « الفكة » ! عبد الوهاب أعلن استعداده لان يمون أم كلثوم ب « العدد » الذى تطلبه من مثل هذه الالحان !

... عبد الوهاب — فى كلمة — عاد الى السباحة فى بحره الضيق الذى استأنسه العمر كله ، وبرع فيه !

***

فى عيون أم كلثوم سر يزعجنا .. ويلزمنا بأن نقترب منه ، لنطمئن عليه !..

... رمد قديم أصاب عيون الطفلة أم كلثوم وهى فى شهرها الثانى .. لكنها نجت منه على يد طبيب من القاهرة ، بعد أن باعت أمها اسورة من ذهب كانت فى يدها ، لتفتدى بها العيون .. أغلى عيون ! ..

... بالطبع ، ليس الرمد القديم هو سر عيون أم كلثوم ، بحالتها الاخيرة .. السر يحكيه ، بدقة علمية ، طبيب عيون قاهرى مشهور .. يشخص الطبيب :

« غدة درقية Goitre — أصابت سيدة الغناء .. ربما سنة ٥٣ .. وكان لابد من جراحة ، والجراحة تمتزج بخطر عظيم .. فربما افقدت أم كلثوم أعز ما تملك : صوتها !.. كيف ؟ اشرح لك : العصب الرئيسى المسئول عن الحبال الصوتية فى الحنجرة ، حكمة ربنا انه يمر من خلال الغدة الدرقية ذاتها ! .. واثناء الجراحة ،

المفروض أن يقطع الطبيب الغدة من حول هذا العصب، ويبقيه مكانه حتى لايفقد المريض مع غدته ، صوته ! من هنا الخطر !..

... والذى انقذ ام كلثوم من عملية اكيدة يترصدها الخطر ، هى : الطاقة الذرية ! عولجت بها سيدة الغناء فى امريكا ، ونجت من الجراحة ! لكن من الاعراض المصاحبة للغدة الدرقية ، وتبقى أيضا بعد ازالتها بجراحة ، أو الشفاء منها بعلاج : حالة جحوظ فى العينين ، أو ما يسمى Proptosis ، وهى الحالة التى يلاحظها الاقربون لام كلثوم.. انما ،كان يطمئننا كلنا ان مثل هذا الجحوظ لايؤثر ، الا قليلا ، على قوة ابصار العيون .. أغلى العيون ! »

ويطمئننا الطبيب ، ويبقى استكمال ، ان أول حفلة لأم كلثوم يسجلها لها تليفزيون القاهرة فى يوليو «تموز» سنة ٦١ .. هذه الحفلة لم تذع ، أيضا لن تذاع مطلقا! والسر أن كاميرا المصور اقتربت جدا من أم كلثوم ، وراحت تسجل بنهم كل ملمح وكل عضلة فى وجهها وهى تغنى !.. وعندما شاهدت أم كلثوم الشريط فى عرض خاص ، اعترضت .. قالت بكلمات محتجة : « ليه المصور يهجم على بالشكل ده ، وكأنه يصور أفكارى ؟ ! لا .. لا ! » .. ثم أضافت معيارا ذكيا لكى يلتزم به المصور التليفزيونى دائما وهو يتعامل معها : «الكاميرا لازم تقف حيث تقف قوة الابصار العادية للمستمع العادى الذى يجلس فى أول صف » !..

... وقد كان .. من يومها ، وحتى وفاتها !

أعرف أن أم كلثوم لها فى مرآتك صورة « محبة » ولهانة ماذا عن صورتها فى مرايا الغير ؟ ..

... عنها كان نجيب الريحانى يقول : « انها فنانة

يتجمع فيها الذكاء النادر ، والشخصية الجبارة ! وهي فنانة تؤمن – عن يقين – بأنه لابد لها أن تفوز دائما ، وأن تتفوق ! » .. لاحظ أن كلام الريحاني يرجع تاريخه للأربعينات .. يعني في أعقاب تولي أم كلثوم السيادة المطلقة على عرش الطرب ، بعد أن أفلست أمامها : منيرة المهدية ، فتحية أحمد ، ملك .. وغيرهن !

... وعنها كتبت مجلة « تايم » الامريكية تقول : « ان أسطورة أم كلثوم تكبر وتستمر منذ ٣٢ سنة ، لأنها اشهر واقوى شخصية فنية في الوطن العربي ، وليست هناك أية علامة على أن أم كلثوم تتأثر بالزمن.. فالعرب يؤمنون أن الايام تزيدها قوة ، وتضيف الى صوتها ولا تأخذ منه !.. وفي الشرق الاوسط هناك شيئان لا يتغيران ، ولا ينال منهما الزمن : أم كلثوم ، وأهرام الجيزة ! »

... ولقد كان لأم كلثوم صورتها في مرآة عباس محمود العقاد ... العقاد يصف الصورة بكلماته : « انها المطربة الموهوبة التي أثبتت أن الغناء فن رءوس وقلوب ، وليس فن حناجر وأفواه فحسب ، فهي تفهم ما تغنيه ، وتشعر بما تغنيه ، وتعطيه من عندها نصيبا وافيا ، الى جانب نصيب المؤلف ونصيب الملحن ! »

... وعن أم كلثوم – الممثلة .. لا المطربة ! – قال المسرحي الكبير زكي طليمات كلمته : « انها أحسن ممثلة في الشرق ، وليست هناك ممثلة أخرى لها مثل مواهبها واستعدادها ! » .. لاحظ أن أم كلثوم كانت من أكثر الفنانين بخلا في الظهور على الشاشة .. في طول حياتها ، لها ٦ أفلام فقط هي : وداد ، نشيد الامل ، دنانير ، عايدة ، سلامة ، وفاطمة !

... وقال عنها مصطفى محمود كلاما شابا : «صوت

يمشي بين الاصوات جميعها شامخا كأنه مسلة فرعونية، أو مئذنة عربية فى جامع عتيق جليل ! صـــوت فيه نورانية ، وابهة ، وفخامة ، وخفة بنت البلد ، ودلعها ، ودلالها ، وشخلعتها ، وأنوثتها ، ومصريتها ! صـــوت يشبه جوادا عربيا اصيلا، مهر عنيد ، جموح ، منطلق!»

***

وام كلثوم بنت مصر ! انها ترتبط بمصر وبالعروبة برابطة روحية خاصة .. اكثر خصوصيـــة وعمقا من رابطة كل واحد فينا بوطنه وبعروبته !.. انها أشـبه برابطة الامومة ، أو البنوة !..

... عندما مات سـعد زغلول سـنة ٢٧ ، رفضت أم كلثوم أن تغنى فى حفل عام قبل مرور اربعين يوما.. وكانت أيامها تحيى حفلة مســـاء كل يوم جمعة من الاسبوع ! وبعد مرور « اربعين » سعد ، كتب لها رامى « نشيد سعد زغلول » ، ولحنه محمـد القصبجى ، وغنته فى أول حفل عادت به الى جمهورها بعد الحداد.. وكلمات النشيد كلها دموع وطنية ورثاء !

... وسنة ٤٨ .. حرب فلسطين الطويلة وفى معركتها الاولى .. أم كلثوم تطلب من « الفريق حيدر باشا » ، وزير الحربية أيامها ، أن تسافر لتغني للجنود على خطوط القتال .. لـكنه يرفض طلبها اشفاقا عليها من المخاطرة! لكن أم كلثوم لم تستسلم .. انطلقت تحارب ، بطريقتها، مع المحاربين.. قامت بحملة لحساب المجهود الحربى، بلغت حصيلتها أيامها ٢٢ ألف جنيـــه .. أضافت هى اليها ٥٠٠ جنيه من مالها ، و ٤٠ جنيها أجرها من الاذاعة عن كل مرة يذاع فيها « نشيد الشباب » الذى أنشدته خصيصا من أجل فلسطين !..

... وأثناء حصار قوات الفالوجا فى معركة ٤٨ ..

أرسلت القوات المحاصرة برقية الى القيـادة تطلب أن تغنى لهم أم كلثوم فى حفلها الشهرى أغنية «غلبت أصالح فى روحى » .. ولمحت أم كلثوم ما فى مطلع الاغنية من ايحاء قد يسيء ، ففنت الاغنية دون أن تشير الى طلبها.. ثم غنت « أنا فى انتظارك » ، بعد أن طلبت من مذيع الحفل أن يعلن أنها تلبية لطلب قوات الفالوجا المحاصرة .. فكانت فألا طيبا بنجاة المحاصرين !

... وجاء عدوان يونيو سنة ٦٧ ، وانتهت المعركة الثالثة فى حرب فلسطين الطويلة بهزيمة عربية مؤلمة.. فى الايام الاولى بعد العدوان ــ سر أذيعه ! ــ مرضت أم كلثوم ، بلا مرض ! اعتلت صحتها لاسباب غير عضوية حيرت الطبيب ! فقدت شهيتها للطعام ، وعاشت فترة على المقويات والفيتامينات ، وظلت تلازم بيتها على نيل الزمالك ، لا تزور ولا تزار ، ولا ترد على التليفون !..

... وانقضت الايام الاولى للصـدمة .. وجمعت ام كلثوم نفسها لتحيل حزنها على الهزيمة الى غضب.. وغضبها الى طاقة وارادة .. واستأنفت الحرب ضـد العدو : راحت ــ على طريقتها ــ تغنى ، والاجر للمجهود الحربى ! وحدت صفوف نساء مصر فى «تجمع وطنى» ونشطت تجمع المال وحلى النساء .. وفى عامين اثنين حققت أم كلثوم رقما يذهل : مليونين من الجنيهات !
... أم كلثوم بنت مصرها ، وعروبتها !

***

وبعد صراع مع الموت امتد مائة ساعة ، توقف قلب أم كلثوم عن النبض وهى مسجاة فى غرفة الانعـاش بمستشفى المعادى ، فى الرابعة والنصف تماما بعد ظهر يوم الاثنين ٣ فبراير سنة ١٩٧٥ .
... ماذا بعد أم كلثوم ؟ !

... سؤال يفجعنا ويجزعنا .. لأننا لم نواجه به أنفسنا من قبل .. لكن : ينبغى ان نواجهه الآن !

... بعد أم كلثوم ـ والعمر المديد لها ـ بالطبع لن ينتهى الغناء !.. قد نبتكر الوانا جديدة من الغناء الطويل أو القصير ، قد نطور الاغنية معنى ومبنى ، قد تصبح الاغنية دقيقة ، أو ثانية ، أوجملة مفيدة واحدة، تصاحبها جملة لحنية واحدة !.. قد تظهر أصوات ذات خصائص جديدة ، وطموح شاب وثاب الى ملء فراغ ما بعد أم كلثوم !..

... لكننا ، أبدا ، لن نكرر أم كلثوم .. فسيدة الغناء هى أعظم بصمة فنية على صفحة الغناء العربى.. والبصمات لا تتكرر !

***

أطلقوا عليها ألقابا كثيره يصفونها .. قالوا : مطربة العصر ، كوكب الشرق ، قيثارة الله ، سيدة الغناء ، معبد الحب !..

مع الكاتب الصديق كمال النجمى :

... لكنني أقول ، انها كالشمس التى وصفها أحمد شوقى :

ما كلام الانام فى الشمس الا ...
انها : الشمس .. ليس فيها كلام !

... وكل ما فات من « كلام » ، لم يكن أكثر من حزمة واحدة من اشعة شمس أم كلثوم .. استطعت بعدسة البحث المتواضعة ، أن أجمعها فى بؤرة هذه السطور ..

... لكن الشمس ـ بالطبع ، وبالطبيعة ـ ليست حزمة واحدة من شعاع !

فيروز :
لماذا يسمعها المثقفون ؟

« الكسر » صعب !..

... أن تأخذ من الواحد الصحيح ثلثه ، تضعه على شريحة زجاجية تحت عدسات التأمل والدراسة .. تتشتت فى ذهنك تأملاتك ، وتختلط عليك دراستك.. فخصائص « الواحد الصحيح » — حتى فى علوم الحساب — موحدة ومشعة فى كل كسوره .. وما تستخلصه منه بمفهوم « الموافقة » ، يقودك اليه أيضا مفهوم « المخالفة » أو المفهوم المعكوس !.. بالضبط مثل الفزورة اللفظية المشهورة فى جملة « بكر معلق بقلع مركب» .. تستطيع أن تقرأها بنفس المعنى من الاول للآخر ، أو من الآخر للأول !.. وقصد الكلام : أن تدرس من الواحد الصحيح ثلثه .. حيرة .. والكسر صعب !

ولقد حاولت أن أكسرها .. فيروز!.. حاولت أن أفصلها عن ثلثيها الادميين : زوجها « عاصى حنا الرحبانى » ، وشقيقه « منصور » .. ليمتد !.. وأدخلها بعد ذلك فى عصارتى .. لكن عصارتى توقفت منى ، وفشلت المحاولة !.. فالكل فى شركتهم الفنية واحد .. والواحد كل !.. حتى « فرنشة » الشعر الكستنائى الناعم المنسدل غالبا على جبين فيروز ، تتكون من ٣ خصلات بالضبط ، سألتها : اشمعنى ؟.. أجابتنى فيروز : لكل واحد منا خصلة .. رمز وحدتنا الفنية !

عصارتى ياعصارتى .. أحتاج كسارة !.. اواستسلم لقواعد الحساب المقررة على سنة أولى ابتدائى .. ولدى فى سنة أولى لايعرف الكسور ، ويتعامل بالكاد مع « الواحد الصحيح » .. ويبدو انه لا طريق الى بنت وديع حداد واولاد حنا الرحبانى الا طريق الواحد الصحيح .. فالثلاثة ، فيما يبدو ، وحدة فنية طبيعية لا يكسرها كسار .. وقد غلب منى الحمار !

***

أى ثلث فيهم يتكلم ، قليل الكلام عن نفسه ، وكثيره عن الواحد الصحيح .. الثلث الاول ـ فيروز ـ يتكلم!

* زقاق البلاط .. ياحيى القديم ، اقدم احياء بيروت وأحدثها ، أفقرها واغناها ، فيه حوارى من البلاط القديم ، وشوارع بالاسفلت واشارات المرور الملونة ! فيه ناس تأكل لتعيش ، وناس تعيش لتأكل ، فاللذة الابيقورية لعبتهم ، وثراؤهم يسمح لهم بممارسة اللعبة ! فيه قصور لأغلب الحكام والشخصيات السياسية ، وفيه شقة مثل شقتنا القديمة ، غرفتان بالبلاط .. أجر ابى ـ الاسطى وديع حداد ـ من جمع حروف الطباعة فى مطبعة جريدة « ليه‌جور » ـ يعنى. النهار ـ التى تصدر بالفرنسية ، لا يسمح لنا بغرفة ثالثة !

تشرين ثان « نوفمبر » ٢١ منه ، سنة ٣٥ .. فى احدى الغرفتين اليتيمتين .. ولدتنى أمى ، لم يفرح أبى بابنته البكر ، فقد كان يريد ولدا .. الله اعطاه الولد من بعدى .. اخى يوسف الموظف بشركة التأمين الاهلية ببيروت .. ثم استأنفت أمى خلفة « البنات » اختى هدى شريكة فنى ، وأختى آمال خريجة مدرسة الراهبات .. لتصبح الاغلبية فى بيتنا للحريم !

* ملامحى الطيبة الهادئة .. أغانى الناعمة .. لا تضحك عليك ! بعكسها كنت فى طفولتى وصباى : عنيدة ، شقية ، مقاتلة ، أظافرى طويلة متحفزة دائما للدفاع ! أبى يدلل اخى يوسف ، يعطيه من حقى أكثر من حقه ! أغار، أتصنع الاعذار لأضرب أخى يوسف كل حين علقة ساخنة لاسباب طفولية صغيرة ! أجذبه من شعره وأقصه بقدمى بحركة بارعة لايجيدها الا قبضايات بيروت .. يجىء أبى ، يشيلنى من فوق أخى يوسف ، يصفعنى حتى تدمى شفتى ، يتساءل قلبى الصغير : لماذا يحميه أبى ؟ لماذا يعطيه من حقى ، أكثر من حقه ؟!

الآن تغيرت ، تركت القتال والتصدى للأمور لزوجى عاصى ، سلمته أظافرى ! لم أستبق لى الا عنادى فى فنى !

* « دخيلك .. بتصـــــــور كتير ما بتشبع » !.. استجابت أصابع رفيقى المصور ، وتوقفت عن مداعبة وجه بنت الاسطى وديع حداد بعدسته الملونة ، عادت الى تعصر ذهنها .. : مدرسة الاناث الاولى ببيروت ، مدرستى ، مدرسة ابتدائية يعنى ، درست فيها ٤ سنين فقط ، لم آخذ « السيرتيفيكا » ، الشـــــهادة الابتدائية يعنى .. اكذب عليك ؟ ! أخذنى الغناء قبل الامتحان بشهور ! كيف ؟ بالقادم عم باحكيلك !..

شاطرة بكل شىء فى دراستى ، ماعدا الحساب ، يابيى يابيى على ها الحساب! ليش الناس عم بتتحاسب؟ ليش مايخلوها على الله ؟ ! لحد يومنا لا أحفظ جدول الضرب لا أعد الفلوس الفكة ، لا طبعا .. أعد الفلوس الكبيرة بعناية سهلة !

* نصف ساعة بالاسبوع ندرس موسيقى وأناشيد، من أجل النصف ساعة كنت أتحمل هم دراستى طوال

الاسبوع ! بالبيت لا اذاكر ولا أفتح كتابا ، يكفيني ما اسمعه فى الحصص لانجح ! امضى الوقت فى لعب«الجلة» ـ يعني : البلى ـ مع اخواتي ، أو « الطابة » ـ الكرة الكاوتش ـ أو اتشاجر مع اخي يوسف لآخذ منه حقي! احيانا أشتغل مع امي بالبيت ، أطبخ ، اكنس، امسح، لا .. لست طباخة لهذه الدرجة ! لا اعرف مثلا كيف اطبخ طبق « الكبة » اللبناني المشهور.. أجيد فقط سلق المكرونة الاسباجتي ! كفاياني !

اذني على الراديو اسمع ، أسمع ، ساعات أدندن لنفسي ، أيوه فاكره منها حاجات : « ياما رق النسيم » للجميلة الصوت ليلى مراد ، وينها ليلى مراد ؟ ! و «ياديرتي مالك علينا لوم» للمرحومة اسمهان، عشقت الغناء !

* ربيع سنة ٤٩ .. حفلة مدرسة الاناث السنوية، اشترك فى نشيد جماعي مع بنات المدرسة ، فاكره اسمه : « يا وطني الاغر » ، سليم فليفل استاذ السولفيج بمعهد الموسيقى ببيروت يحضر الحفل ، يستكشف أصواتا جديدة يقدمها فى ركن الاناشيد الوطنية الذى يشرف عليه فى الاذاعة ، اختارني مع بنتين من زميلاتي ، لا .. لا أذكر اسميهما فقد انقطعا عن الفن بعد خطوات قليلة !

« حاكي بيك يابنيتي .. ناخدك الكونسيرفاتوار؟ » ده سليم فليفل ، حاكيت بيي ما اعترض .. فالدراسة فى المعهد بالمجان ! التحقت بنفس الوقت بفرقة كورال الاذاعة ، بمرتب ١٠٠ ليرة « ١٢ جنيها تقريبا » ، أيوه فتاة كورس يعني ، صوت من ضمن حزمة الاصوات الخلفية تردد وراء أية مطربة مشهورة ! كنت ادرس أصوات المطربات وطريقة كل منهن فى الاداء .. وأدرس

السلم الموسيقى وعلم الاصوات فى المعهد.. كنت أريد أن أصنع من نفسى شيئا هاما .. لكنى لم أكن أتصور لنفسى - أيامها - مستقبل فيروز !

* فيروز .. لست صاحبة الاسم ! اسمى فى جواز السفر : نهاد وديع حداد ، حليم الرومى الملحن ورئيس قسم الموسيقى باذاعة بيروت هو الذى اختار لى أسمى، الحقيقة كان سيسمينى شهر زاد .. لكن أستاذ شهر زاد اسم شايع ، وفيه مطربة مصرية بها الاسم ! واقتنع حليم واستقر على تسميتى الفنية : فيروز !

* عاصى رحبانى ليس أول من لحن لى ، أول ألحانى بعد أن خرجت من حزمة الصوت الخلفية وضعها لى حليم الرومى .. من أشهرها « ياحمام يامروح بلدك » الى أن التقيت بعاصى ، لو سارت الامور بعد أول لقاء بطبيعية ما كنت .. وما كان الرحبانية ! كيف ؟ عم باعترف لك بالتو !..

أواخر سنة ٥٠ .. مكتوب من حليم الرومى الى عاصى رحبانى الملحن بقسم الموسيقى ليحضر حالا لدار الاذاعة، حضر حليم ، قدمنا لبعض من شان يسمعنى ويعمل لى ألحان ، غنيت له «ياديرتى» لاسمهان ماعجبته ! قلت له «ياحمام» قاطعنى فى نص الاغنية : « يامدموازيل» صوتك بالحاضر ما بينفع .. بدك تدريب كتير !.. بعد سنتين من الشقا والدراسة والانزواء فى حزمة الاصوات الخلفية ، جاى عم بتقول بدى تدريب كتير ؟ ! كرهته لحظتها وتمنيت لو أصفعه !

* تلاقينا بعدها كثيرا ، ذاب الجليد ، بدأ كل منا يفهم الآخر ويقتنع به ، لحن لى أول ألحانه « حبذا ياغروب » من أشعار « قبلان مكرزل » ، سقط اللحن ولم يشتهر ! استفدنا من أخطائنا وبدأنا نبحث من

شخصية غنائية اطل بها على آذان المستمعين ، اكتملت معالم شخصيتي الفنائية سنة ٥٤ .. فى اغنية «عتاب»

حاجى تعاتبنى ؟ .. يئست من العتاب !

ومن كتر ما حملتنى ها القلب داب !

ذاعت الاغنية واشتهرت ، اصبحت اعلانا متكررا فى الاذاعة اللبنانية عن شخصية فيروز الغنائية ، وشخصية الرحبانية ــ كلمات ، تلحين ــ الفنية كانون ثان ــ يناير ــ سنة ٥٥ ، وبعد ٥ سنوات من الدراسة المتبادلة والحب .. تزوجت عاصى ، ٤ أولاد .

* دخلنا معا بستان الفولكلور ، من أشهر الاغنيات الشعبية : « يابا لا لا .. بتريد تحاكينا لا لا » و «هيك مش الزعرورة » ، ومن أشهر الاسكتشات التى أصبحت أصبحت نواة للمسرح الغنائى : « جيران القمر» و«الليل والقنديل» و « بياع الخواتم »

سكتشات » ؟.. يتدخل عاصى مصححا .. « هذا مسرح غنائى ماية بالمية » !.. ويتشتت بنا الحوار، يقول منصور : مسرحياتنا الغنائية لا تهتم فقط بالموسيقى، وانما تهتم أيضا بالحالة المسرحية ، بالدراما ، هذا يميز مسرحنا الغنائى عن الاوبريت مثلا التى لا تهتم كثيرا بالعقدة الدرامية والمعالجة المسرحية ، ولهذا انقضى عهد الاوبريت فى العالم ، اصبحت موضة فنية قديمة ! وفرق آخر بين مسرحنا الغنائى والاوبرا مثلا ، فالاوبرا عمل فنى متكامل موسيقيا ، مسرحيا لا ! الاوبرا لا تهتم كثيرا باللحظة الدراماتيكية على المسرح ، قدر اهتمامها بالموسيقى ، كلمة مثل « الى اللقاء » يستغرق القاؤها مسرحيا ثانية واحدة .. ثانيتين .. لكنها فى الاوبرا قد تمتد، وتتكرر وتتطور تطويرا نغميا موسيقيا يستغرق اداؤه ١٠ دقائق كاملة .. فى هذه الدقائق الـ ١٠ يكون

الحدث المسرحي قد تعطل تماما !

اذن ماهي خصائص مسرحكم الغنائي .. عاوز افهم؟!
يفهمني عاصي : النص المسرحي عنـــدنا يوازى النص الموسيقى تماما ويعادله من حيث القيمة والتفصيل .. الموسيقى لا تطغى على الكلمة ، وتراعى اللحظة المسرحية فلا تعطلها ، فى مسرحنا الغنائي كل عنـــاصر المسرح وادواته ، فى مسرحنا لا نستعمل الاصوات السوليست ـ المنفردة ـ على الطريقة الغربية الكلاسيكية .. وانما نستعمل فى الحوار طرقا شرقية مختلفة ومتميزة .

❋ النسبة الغالبة من سميعتك فى مصر يافيروز .. مثقفون ، اشمعنى ! عندك تحليل ؟ فيروز تقول : نفس الظاهرة فى لبنان والدول العربية .. لكن خطابات كثيرة تصلنى من عمال ومزارعين وصغار موظفى الدواوين ! ولا أعرف تحليلا لهذه الظاهرة !

لـكن عاصي يعرف تحليلا : « الاطار الفنى المخلص المدروس الذى تظهر فيه القواعد العلمية ببروز .. هذا « طعم » يجذب فى رايى المثقفين الى فننا ! »

❋ تقلع أسنان الرحبانية ولا تستطيع أن تحصل على صورة بيانية لاقتصاديات فنهم ! كم تتقاضى فيروز فى الاغنية ، فى الحفلة ، فى الاســـــطوانة ؟ كم يتقاضى « الرحبانية اخوان » فى اللحن ، فى كلمات الاغنيــة ؟ سر مالى مغلق ، يقول عاصي : « اسأل صبرى شريف مدير فرقة الفنون الشعبية اللبنانية .. يحكى لك » ! وبالمناسبة عاصي يؤلف الـكلمات ويلحنهـا ، منصـور كذلك ، احيانا يختلطان ، واحد يؤلف والآخر يلحن ، والعكس . ثلثان والثلث الثالث فيروز ، ربما كانت الثلث الاول !

❋ فيروز : « بياع الخواتم » .. فيلمى الاول ، بالطبع لن يكون الاخير ! لا أستطيع أن اقول ان تمثيلى فى مستوى

فني الغنائي .. وراء ظهري اكثر من ١٥٠٠ اغنية واسكتش ومسرحية غنائية . لا ، لامفاضلة كلهم اولادي!

* عاصي : عاوز تطل على فيروز في مرايتي ؟ اوصف لك : زوجة بسيطة ، وفنانة بسيطة ، حيث لا انشغال بفنها تقعد في بيتها لتشرف على تربية الاولاد ، لاتراها كثيرا في مجتمعات بيروت ولياليها ، شخصية اجتماعية انما في حدود ، لا تتميز بلازمة أو عادة – نسميها «تك» – يمكن أن تشيع ويقلدها البنات ! خجولة من الظاهر ، انما تحت خمار الخجل شخصية عنيدة ، خصوصا في فنها ، تنازلت لي عن اظافرها منذ زواجنا .. لكنها أحيانا تستردها مني ! سميعة ممتازة لكل انواع الموسيقى والغناء ، تسمع كلاسيك وراقص ، تسمع اسطوانات أغاني بكل اللغات .. طبعا لا تعرف بجانب اللغة العربية غير اللغة الفرنسية . لكنها لا تهتم بمعنى الاغنية تهتم بطريقة الاداء .. واهتم أنا ومنصور بطريقة تركيب الجمل اللحنية أو « فورميولا اللحن » !

* منصور : يصلح خبرا .. اقرأ الآن «عودة الروح» لتوفيق الحكيم ، سوف نحولها الى مسرحية غنائية نشترك مع عبد الوهاب في وضع الحانها وتوزيعها ، وتمثلها عناصر فنية مصرية مع فيروز .

ندرس عروضا لانتاج افلام مشتركة مع مؤسسة السينما ، ندرس أعمال الشيخ سيد درويش – العشرة الطيبة – الباروكة – شهر زاد .. وغيرها – بهدف اعادة توزيع عمل فني منها أو اكثر .. لنحيي تراثنا ، ويعود الشيخ سيد الى آذاننا !

***

قلت لـ «نونو» .. اسم الدلع لنهاد على لسان زوجها .. عاصي يدلع نهاد – اسمها الحقيقي – ولا يدلع

فيروز ، اسمها الفنى !..

* لنجاة الصغيرة رأى فى صوتك ؟ !

ــ شو بتقول ؟

* تقول ما معناه : « صوت فيروز صوت سحابى ، لا تنقصه الشفافية .. انما ينقصه طعم الارض ! ؟ »

ــ محبتى لها ولصوتها .. وتقديرى ! « ملحوظة : امتقع وجه فيروز غضبا ! »

* هل تحسين بمنافسة صباح .. هناك فى بيروت ؟

ــ صباح محبوبة جدا .. كويسة .. وايلها لونها !

* بعد غياب سيدة الغناء العربى أم كلثوم .. تعتقدين : من يمشى فى شارعها .. من يملأ فراغها العظيم ؟

ــ لا أحد .. حتى أنا !

* كيف تتصورين مستقبل فنك ؟

ــ فن الفنان مثل حجر الماس ، ينضج فى بطن الارض ببطء ، ويتغير .. واتمنى أن يكون فنى بالمستقبل أكثر عمقا ، أكثر شعبية !

* هذا عن فنك عربيا .. ماذا عنه عالميا ؟

ــ لم يجد لسانها اجابة للسؤال !.. أجاب منصور رحبانى : عندك شاعر الهند طاغور ، له حكمة تقول : « من المحدود تنفتح أمامك طاقة الى اللا محدود ! » .. ونحن بدأنا فننا لبنانيا ، أصبح الآن عربيا ، ونتمناه عالميا !

نجـــاة :
حاجات كده ..!

اعلان على يد محضر ! ..

تعلن نجاة الصغيرة أنها فشلت فى ان « تكبر » على لسان الجمهور ! الجمهور عاوز كده ، عاوزها «صغيرة» على طول ! تقول لحد : نجاة.. يكمل طوالى : الصغيرة .. تقول له : الصغيرة .. يقول لك : نجاة ! اللقب الذى أطلقه عليها متعهد الحفلات القديم المرحوم صديق أحمد وهى على أول السلم الفنائى ، ليميزها عن مطربة الوقت والاوان « نجاة على » ، لزق فيها على ألسنة الناس .. ويكاد يقتحم عليها اسمها الرسمى فى البطاقة العائلية .. وبطاقة التموين !

ونجاة الصغيرة ــ ٣٧ سنة وكسور ! ــ تحس أن « الصغيرة » لقب على غير صاحبه !.. فهى تستطيع أن تغنى الآن على المسرح من غير ما تقف على كرسى .. ليراها الجمهور ! وهى أم لشــاب على ابواب جامعــة كامبريدج . اسمه « وليد » ، وعمره الآن ١٧ سـنة . وهى الآن والايام التالية ، تدير اعمالها بنفسها ، بعد أن استقلت تماما عن صنف الرجال !.. وقد طلبت من المذيعين ومندوبى الاعلانات ان يركزوا على اسمها فقط .. « نجاة » كده حاف .. كل هذا ، ولو !.. لا احد يريد أن « يفطمها » عن لقب « الصغيرة » !

جرى ايه يا أم وليد؟ ملاحظ انك تستعملين فى حديثك كثيرا لازمة « حاجات كده » .. نفس اللازمة بتــاعة « عبـــــد الوهاب » وبنفس حركاته .. انت بقيت

« وهابية » ، حتى بالقول والاشارة ؟ ! والرد جاهز : « أبدا .. أنا عند عبد الوهاب باقعد وادرس ماتعجبنيش فيه حاجات كتير .. انما تعجبنى موت ادارته لفنه .. امتى يغنى .. وامتى يعرض اسطوانة ، وامتى يخبيها زى الرز لغاية ماتيجى مناسبتها ! عليه ادارة !.. ومنه باستفيد واضيف لتجاربى ! » ..

... شوف بقى ازاى نجاة .. « الصغيرة » ؟ !

***

« ماى سويتى » .. والترجمة « ياحلوتى » .. اسم الدلع الذى يناديها به ابنها وليد ، ماى سويتى الذ فى أذنها الف مرة من اسمها الرسمى نجاة .. قولى ياحلوتى !..

* ميلادى الرسمى لايهم غير حكيمة المستوصف التى نزلت للدنيا على يديها ! على كل ، أنا من مواليد سنة ٣٨ ، يعنى ٣٧ سنة عمرى . انما ميلادى الفنى هو أهم تاريخ فى حياتى ، وقد ولدت فنيا سنة ٥٧ ، عندما غنيت « أسهر وانشغل أنا » ، فسهر معى الناس وانشغلوا بفنى !

* أول حفلاتى اقمتها فى بلكونة بيتنا المطلة على ميدان الاوبرا ، وحدى فى جانب من البلكونة والنهار بيودع الميدان ، واخواتى فى جانب آخر يتعلمون الحساب بقراءة نمر العربيات التى تمر !.. تخنقنى رغبة فى أن اغنى .. اسرسع اى اغنية تخطر انغامها على اذانى .. احيانا الحن ، جملة مثل « يابتاع الدرة » اغنيها بألحان مختلفة كل مرة بطريقة ولون ، تغمرنى حالة انسجام حتى تبتل عيناى بدموعى !

* صوت أم كلثوم فى أذنى أغلب أوقات يقظتى .. فأبى لايفتح الراديو لغير اغانيها ! أخى عز الدين يدرس

الموسيقى فى المعهد ، ويعصر فى البيت أشواقه على الكمان كلما هزته أشواق ، يزهق من العزف ، فينادى سامى اخويا الاكبر منى مباشرة ، ويمرنه على السلم الموسيقى كل العائلة كانت تعتقد أن صوت سامى ـ موظف بشركة الشرق للتأمين الآن ـ هو مستقبله ! سامى نفسه لم يكن يعتنق رأيهم .. كان يتمرن على «السولفيج» مجرد أداء واجب !

فى ليلة مت من غيظى !.. وقفت فى وسط لمة العائلة وقلت : « ماهو يابابا لازم تسمعوني وتسيبكم من سامى .. سامى موش عاوز .. لكن أنا عاوزة وغاوية » ! القصد ، سمعوا لى « هلت ليالى القمر» .. طيبوا خاطرى بكلمة ، ونادوا على سامى : « تعالى بقى انت ياسامى .. يالله سمعنا كده واطربنا» ! ماذا اقول لهم؟!

* شهور قليلة وانقلب الميزان ! فقد اخى عز حاسته لصوت سامى ، ومسك فى ! اكتشف انى لا انشز ابدا، وأمشى على السلم الموسيقى دون أن اتشرف بمعرفته علميا ! اكتشف فى قدرتى على جفظ اى لحن بمجرد ان أسمعه مرة ! كلبشت فيه .. أصبحت ظله القصير كلما راح الى معهد الموسيقى !

* أحمد خيرت زوج أختى الكبيرة ، وعميد مفتشى الموسيقى والاناشيد بوزارة المعارف أيامها ، سنة ٤٤ حفلة على مسرح حديقة الازبكية ، والمناسبة ملكية ! فى الحفلة مع أطفال بابا شارو لألقى معهم نشيدا بالمناسبة. قلنا النشيد. تأخرت أم كلثوم والدور دورها وقتها . أحمد خيرت ، لكى يشغل المسرح الخالى ، يطلب منى أن أطلع وأغنى اى حاجة لأم كلثوم الى ان تصل ، غنيت « حبيبى يسعد أوقاته » ، بعد أول مطلع الصالة ارتجت بالتصفيق ، أصوات تناهت من آخر

الصالة : « شيلوا الـكمبوشة » .. كمبوشة الملقن ـ لشدة قصري ـ تحجبني عن عيونهم ! واحد من عمال المسرح يحضركرسيا ويرفعني لاقف عليه واكمل الاغنية!
طابعة بعد الستار لقيت « الست » في الكواليس ، حضنتني ام كلثوم وباســتني وهي تتمتم بمزيج من الســعادة والدهشة : « كل ده وانت قد كده ؟ ! آه ياعفريتة ! »

* متعهد الحفلات المرحوم صديق أحمد سمعني وسمع عني ، جاء يتفق مع أبي لأشترك في عدد من الحفلات في الاسكندرية ، بعد مفاوحة اقتنع أبي بأن يسمح لي بالغناء مؤقتا : « واهي لغاية ما تكبر شوية ويبقى عندها ١٠ سنين .. نقعدها » ! قبل ابي عرض صديق احمد ان اشترك في ٣٠ حفلة ، الحفلة ب ٥ جنيهات كاملة .. بداية مشجعة للاحتراف !

«اليكم المطربة المعجزة نجاة الصغيرة» مذيع الحفلة في مسرح سينما فؤاد » بالاسكندرية . غنيت ســلوا قلبي . مفاجأة للجمهور .. فالقصيدة جديدة غنتها أم كلثوم مرة واحدة منذ أيام قليلة ! فكري أباظة يكتب في « المصور » : « مثل هذه الطفلة مهما كانت معجزة كيف يسمح لها بالسهر الى مابعد منتصف الليل ؟ ! » .. وعبد الوهاب يقول في حديث صحفي في مجلة « الفن » : « موهبة زي دي موش معقول تشتغل .. اني اطالب الحكومة بالحجر عليها والحاقها بمعهد لتتعلم، الى أن يسمح لها سنها بالسهر ومواجهة الجمهور» !

* خط التعليم في حياتي خط قصير .. مجرد نقطة! لم أدخل في حياتي مدرسة ! لـكني علمت نفسي بنفسي أبي أعطاني مفاتيح القراءة والـكتابة ، علمني « ألف باء» أخذت المفاتيح ورحت أجربها في صــفحات الصحف

والمجلات وكلمات الاغانى ، كنت اضـــع الحرف جنب الحرف حتى تنطق الـكلمة ، واضع الكلمة بجوارالكلمة حتى تنطق الجملة ! وبعـد مران قاس على صـفحات الصحف والمجلات ، انتقلت الى الـكتب ، قراءة النفس الطويل اتعبتنى فىالبداية ، لكنى روضت عقلى وتعودتها استمتع الآن بقراءة الـكتب النفسية الناعمة ، استمتع اكثر بقراءة الحكم والامثال .. حكمة واحدة لبرناردشو مثلا تعطينى جانبا عظيما من خبرة عمره ، فى سطرين!

منذ ٤ سنوات وانا آخذ دروسا فى اللغة الانجليزية. المدرسة واحدة صاحبتى .. وبدلا من الدردشة بالعربى، بنتكلم بالانجليزى . استطيع الآن ان ادخل مع ابنى وليد فى حوار طويل باللغة الانجليزية !

* « نجاة الصغيرة .. نجاة المعجزة » .. معجزة ليه ؟ لصغر سنها ! لـكنى كبرت ، أصبحت بنت ١٤، وتغيرت سحنتى الطفلة ، وتفاصيل جسمى ، لم أعد معجزة وانا اغنى « نهج البردة » و « ولد الهدى » . لابد أن انفطم عن ام كلثوم واصنع لنفسى شخصيـة غنائية .. لابد !

محنتى هذه شغلتنى عن بنوتيتى واحلام سنىالمراهقة اخى عز وقف بجانبى فى محنتى ، جاب لىكلام اغنية « اوصفوا لى الحب » من مأمون الشناوى ، واعطاه لمحمود الشريف ليلحنه . وانا احفظ اللحن من الشريف انتابنى احساس كسيح .. تمنيت لو أن احـدا غنى الاغنية قبلى ، لأغنيها انا وراءه ! غنيت الاغنية بربع دامع شخصيتى ، وربع طريقة اخى عز فى الاداء ، والنصف البـاقى تقليـد لحركات أم كلثوم وايماءاتها الغنائية .. كيف اشتهرت « اوصفوا لى الحب » أول اغنياتى بعد الاستقلال ؟ انا لا اعرف !

* تزوجت المهندس الزراعى كمال منسى ، لم أستطع أن أعطى كلى لزوجى ، فنى لم يسمح ولا أعصابى ، اختلفنا ، انفصلنا بعد ٣ سنين وشوية ، لا أبدا موش تضحية كبيرة ولا حاجة .. عندى فنى . عندى وليد رجلى حبيبى . عندى الستر .. الى ان تقهرنى يوما سهام الحب العاقل وأغير رأيى .. ربما !

اتجوز عبد الحليم ؟ دى كانت اشاعة .. وده كلام ناس عاقلين برضه ؟ ! لا ، لا .. المرحوم كامل الشناوى كان مجرد أبويا الروحى !.. اسمع بقى لحد حكايتى مع المرحوم عز الدين ذو الفقار ، واسمح لى .. دى أسرارى الشخصية قوى وذكرياتى الخصوصية جدا !

* فى أواخر عمر زواجى مرت بى سنة عصيبة ، انعكست آثارها على فنى ، غنيت يجى ٣٠ أغنية « مختارات اذاعة » ، أغانى لا اذكر أسماءها ، أغانى زى الميه السخنة لما تشربها فى حر اغسطس ، فلا تروى لك عطشا !

كان الرجل يسيطر على وعلى فنى ، الرجل أبى ، والرجل عز أخى ، ومن بعدهما زوجى .. تحررت من سيطرة الرجل وغنيت « أسهر وانشغل أنا » ، نجحت الاغنية ، اعتبرها تاريخا لميلادى الفنى ! لكن شخصيتى الغنائية لم يكتمل لها طابعها الا فى المرحلة التالية .. مرحلة « أيظن » و « ساكن قصادى » و « الشوق والحب حلى » و « شكل تانى » و « أنا باستناك » ... قصائد سهلة وبسيطة وتحكى حكاية .. من بساطة قصائدى حفظها الاولاد ورددوها .. وقد كان مجرد الاستماع الى قصيدة فى الماضى عمل يخص ، ويرغم المستمع على الرجوع الى كتاب « العروض » أو «مختار الصحاح » من حين لآخر ، ليتابع فهمه للقصيدة !

يقول نزار قباني في قصيدة لي ، من الحان محمد عبد الوهاب :

تعود شعري الطويل عليك ..
تعودت ارخيـــه كل مساء ..
سنـــابل قمح على راحتيـك ..
تعـــودت اتركه يا حبيبي ..
كنجمة صــيف على كتفيـك ..
فـكيف تمل صــداقة شـعري ..
وشـعري ترعرع بين يديك ؟ ! ..
... خيال ناعم ، وكلمات مثل « الغريبة » !

* لي في السينما أفلام . أولها «هدية» ومثلته مع عزيزة أمير وعمري ٨ سنين ، بأجر ٢٥٠ جنيها ، وثانيها وثالثها ، أفلام كده ! ورابعها « شـاطيء المرح » وقد قفز أجري فيه الى ٤ آلاف جنيه ، بتقول شوية ؟ هم الحقيقة اعتبروا أجري ٧ آلاف .. لأنهم دفعوا لعبد الوهاب ٣ آلاف أجر تلحين اغاني الفيلم !

* أحلل لك صوتي : صوتي ديوان كامل ، يعني ١٠ مقامات ، مفيش النهاردة صوت أكثر من ١٠ مقامات ! والمسألة ليست مسألة مقامات بالعدد مثل الليمون ! فيه أصوات ٤ أو ٥ مقامات مثل صوت عبد الحليم ، لـكن عبد الحليم يلعب في مقاماته القليلة بموهبة وذكاء!

من أحسن ما قيل في وصف صـوتي كلمة لـكامل الشناوي : « انه ضوء مسموع » ! وأسوأ ما قيل لم أسمعه بعد ! رأي أم كلثوم الذي تقول عنه نشرته مجلة لبنانية منذ سنين .. قالت ماسمعناه ان صوتي لايميزه شيء ، ولذلك كل أغاني لون واحد !.. لـكن لام كلثوم رأي قديم في صوتي .. كانت دائما تقول عنه في مجال

المقارنة بين الاصوات انه « حاجة تانية » .. وأنا أعتز برأيها القديم !

* أحلل لك جمهورى : البنات والصبيان ، الشباب من الجنسين ، الرجال والسيدات حتى سن الاربعين، ورصيدى من السيدات فى هذه السن أكبر، والمفروض العكس ! وتحليلى يستند الى خطاباتهم لى !

* لا أستطيع المقارنة ، انما أبدى لك رأيى ..

صوت فيروز : صوت سحابى لا تنقصه الشفافية ، انما تنقصه الواقعية ، ينقصه طعم الارض !

صوت أم كلثوم : قوى ، عفى الاداء ، طويل النفس، مقتدر يهضم شخصية اللحن ويطويها تحت نبراته.. ان صوت أم كلثوم شارع مقفول عليها ، لا مكان فيه للمشاة ولا راكبى السيارات وعساكر المرور ! وبعد أم كلثوم لن يجرؤ أحد على أن يمشى فى شارعها .. وسوف يبحث السميعة عن شارع آخر !

* أمشى على درب فنى ، واحدة واحدة .. تخطيطى الطموحى قصير المدى ، على قد شوفى ! أشوف النخلة اللى هناك عند الافق مثلا ، أقول : هى دى ! أوصل لها ألاقى الافق جرى بعيد عند نخلة تانية .. أواصل المشوار !

***

أسأل نجاة .. قولى لى ياحلوتى :

* لك فى الاندماج الفنى وأنت تغنين طريقة متميزة ، تقاطيع وجهك تمثل المعنى مع المغنى ! أسألك : ايه النغمة اللى تسلطنك وتعطيك مفاتيح الاندماج الفنى ؟

– مافيش نغمة بعينها .. انما فيه آلة توحى لى وتشبك بأنغامها وجدانى .. زى القانون ، زى الجيتار، زى البزق !

* والتصرف اللى « يفوقك » من حالة الاندماج ؟
ـ « قهوة ، شاى ، كازوزة ، ليمونادة ، فراولا »
أصوات عمال البوفيه فى الحفلة !.. ولذلك بامنع عمال البوفيه من الظهور فى الصالة وانا اغنى !
* كيف تندمجين.. بتحسى المعنى فى المغنى وتمثليه؟
ـ المعنى ، زائد انفعال الملحن بالمعنى كما يصوره فى لحنه ، أقتنع ، انفعل ، اؤدى .. فيصدقنى الجمهور !
* بتبقى سامعة أصوات السميعة وآهاتهم ؟
ـ أسمع رنة الابرة فى الدقائق الاولى .. من صيحاتهم من طريقتهم فى السكوت وفى التصفيق باعرف اى جمهور هم ! أحيانا تلاقى جمهور جاى « يتفرج » على نجاة ويهرج ! وجمهور جاى «يسمع» نجاة وفى أغنية بالذات .. المهم بعد دراســـة سريعة فى الدقائق الاولى لازم اسيطر على الجميع .. انبسط من حتة أعيدها .. ما انبسطش انقل على طول .. لغاية ما يبقى الكل مستمع واحد !
ازاى ده بيحصل ؟ مسالة احساس .. ومران !
* لماذا تسبلين عينيك اغلب الوقت ؟
ـ عادة وحشة باحاول ابطلها ! وان كان تسبيــل العينين يعطينى حالة من الانعزالية والتجرد تســاعدنى على الاندماج الفنى !
* ما رأيك فى طريقة أم كلثوم فى الاندماج الفنى ؟
ـ استاذة !
* وطريقة محمد رشدى ؟
ـ بيشاور بايديه كتير ! بيقـــلد غيره فى اداء دور المايسترو للفرقة الموسيقية .. بجانب الغناء !.. اظن كلامى واضح !
* ماذا يضيف الاندماج لامكانيات الصوت الفنية ؟

ـ لايضيف شيئا .. انما يساعد الفنان على نقل اقتناعه الى الجمهور .. ومن غير اندماج يصبح الغناء مجرد القاء .. والقى زى ما انت عاوز شوف مين بقى حيسمعك !

* وحدك عندما تندمجين مع نفسك .. بتدندنى تقولى ايه ؟

ـ ادندن أى حاجة .. يمكن اردد صوت بياع .. أدندن نداءه بنبرة حلوة ينفرد بها صوتى ، وأريد أن أمرنها واعمقها !

* كيف تهيئين نفسك لليلة حفلة أو ليلة تسجيل.. لك « بروتوكول » ؟ !

ـ أؤجل كل همومى ، وعندى قدرة فائقة على هذا التأجيل ! انام ٩ ساعات فى الليلة السابقة ، وساعتين ظهر نفس اليوم ، فى اعتقادى مفيش اى حاجة تحسن الصوت ، حتى السكر النبات بيعطش ويخلى حالة الواحدة حال ! انما فيه حاجات بتتعب الصوت ، وهذه امتنع عنها .. زى أى طعام فيه حديد : الرمان ، البرتقال ، القشطة ، السبانخ ، زى شرب الماء بكثرة قبل الغناء ، بيرخى أوتار الصوت .. والحاجات دى كلها تجربة ، وليست نصيحة طبيب !

* أيهما أصعب : الاندماج فى اغنية أمام جمهور .. ام الاندماج فى دور سنيما أمام الكاميرا ؟

ـ بالنسبة لى الاندماج أمام الكاميرا أصعب .. وتسأل غيرى تلاقيه يقول لك العكس !

***

آخر نقطة : الزمن سرق منها طفولتها ، لم تلعب « الاولى » فى الحارة ، أو تشتر « عسلية » و «دوم» من الدكانة على الناصية !.. كانت من بلكونة بيتهم

للحفلة ، ومن الحفلة لحبسة البلـكونة ! ولهذا فان فى أعماقها رغبة دفينة فى أن تعتزل الفن فى وقت مبـكر يسمح لها بأن تمارس طفولتها !

... لـكن أين ذلك الـكتف الامين الذى ترخىعليه شعرها بحب وإطمئنان تلك الامسية الحالمة القادمة .. وتمارس طفولتها .. أين ؟ !

هدى سلطان :
سنتك سنة كبيسة .. يابهيجة !

كانت سنة كبيسة « يابهيجة » .. مع انها حسب التقويم الفلكى ، لاتقبل القسمة على ٤ ! ليلة رأس سنة ٦٦ كنت يابهيجة سعيدة سعادة .. استقبلت السنة الجديدة فى ملهى من ملاهى الهرم . رقصت يابهيجة وفرحت ..

لكن السنة الجديدة لم تكد تلدأيامها الاولى ، حتى شاخت فجأة أمام عينيك .. احترقت !.. فى يناير فتحوا بطن احدى بناتك فى عملية جراحية مفاجئة . فى ابريل غضبت من زوجك السابق فريد شوقى ودخلت المستشفى تطلبين من طب الاعصاب شفاء لايقدر عليه . فى مايو : انفصلت عن زوجك بالطلاق ، بعد ١٥ سنة من الوفاق! وفى اكتوبر مات محمد فوزى.. راح منك أخوك !.. سنتك سنة كبيسة يابهيجة !

لاتكلمينى عنه ، أعرف عن علاقتكما أنها كانت «عشقا» بين أخوين !.. كنت ترقصين معه فى ملاهى الليل برومانسية زائدة ، يغار لها زوجك فى قعدته.. ويزوم! وكنت تقولين عنه أنه « واحدة صاحبتك » ، من فرط ائتمانك له على أحرج أسرارك !.. لكنى وسط الكراسى التى تطايرت فى « الخناقة العائلية » بعد موته ، لم اعرف تشخيصا لمرض فوزى الذى حمله الى العالم الآخر ؟ ! سرطان ؟.. « أبدا ، مرض غريب شخصه أطباء لندن باسم « كارسونويد » ، يصيب النخاع الشوكى فى أسفله ، ويزحف الى أعلى ، يدمر

الخلايا. الم فظيع كان يصرخ له فوزى كل يوم مرة ، عندما اصيب به قبل ٣ سنين من وفاته .. وفى ايامه الاخيرة كان يزوره الألم ١٠ دقائق كل ساعة ! ٣ حالات بسجلتها المراجع الطبية فى العالم كله لمرض الكارسونويد .. وفوزي كان الحالة رقم ٤ ! »

... وتسرح بهيجة .. تغيم عينـــاها وهى تقول ببساطة ومفاجأة : « تعرف ان الدور دورى.. أنا كمان عيانة بالـكارسونويد » ؟ !

***

* بهيجة عبـــد العال عبد السلام الحو ، واسم الشهرة : هدى سلطان ، اختـارته لى أختى الـكبيرة ومحاميتى : مفيدة عبد الرحمن ، وعندما اشتغلت فى السينما سنة ٥٠ ، مشيت باسمى الجديد فى الفن !

بيتنا بيت العائلة فى شـــــــارع طه الحكيم ، حى اسكاروس قلب طنطا واقدم عمران فيها ، ١٥ اغسطس سنة ٢٥ ، يعنى فى اغسطس القادم أصل محطة السن الحرجة .. سن الخمسين ! اكثر من كده صراحة ؟ ! أمى تركية الاصـل . وأبى مزارع يملك ١٠٠ فـدان وكسور . بالميراث نابتنى الكسور، ٧ فدادين !.. اصل أمى كانت الزوجة الثالثة والاخيرة لأبى ، تزوجها وعمره ٥٥ سنة ، وهى فى الـ ١٥ ! ١٦ أخ واخت ، اشقائى منهم ٤ فقط ، أكبرنا فوزى ، الله يمتعه بالجنة ونعيمها!

* مدرســة أم كلثوم .. مدرستى ! وميت لقيت أم كلثوم فى بيتنا ، اســطوانات تدور على فونوغراف قديم ! سمعتها وشاركت أبى ولهه بصوتها. كنت ادندن معها .. أمشى مع « عرب » صوتها ـ العرب : تموجات الصوت داخل المقام الواحد ـ واتبختر بصوتى المسرسع! أبى وهو يحتضر طلب ان يسمع أم كلثوم فى دور « هو

ده يخلص من الله » .. وكان صوتها هو آخر ما سمعه من الدنيا !

* الخص لك تعليمي : سنة رابعة أولى من مدرسة طنطا الاولية ! قدمت فى مدرسة المعلمات ، لكنى لم ادخلها ، قعدونى ، حيجوزونى ! كنت بنت ١٥ عندما تزوجت لأول مرة ، بلاش تفاصيل فى النقطة دى وحياتك .. أصلى باتألم !

« بمعلوماتى : دام الزواج لشهر واحد ، العريس موظف متواضع بسكة حديد طنطا ، ابو « نبيلة » بنت هدى الكبيرة ، وزوجة الضابط رائد شريف الحكيم ، نبيلة كانت معروفة فى مدرسة ليسيه الحرية أيام التلمذة باسم : نبيلة فريد شوقى ! »

* الخص لك ثقافتى : عندى عادة نهمة .. اذا اشتريت قرطاس ترمس ؛ قبل ما آكل الترمس اقرأ القرطاس !.. وعلى الأكل ، الكتاب قبل أى طبق !

أيام قعدتى فى البيت قبل زواجى الاول .. زبونة دائمة فىمكتبة البلديةبطنطا. قرأتأغلب روايات تشارلز ديكنز ، والمنفلوطى ، ألف ليلة ، كليلة ودمنة ، فرغت من الادبيات ، فانتقلت الى أرفف الكتب العلمية : قرأت مراجع عربية كثيرة فى الطب ، اذكر منها كتاب مارى ستوبس « أصل الامراض » !

الآن .. قراءة القصص لذتى ، طويلة ، قصيرة ، مترجمة ، مؤلفة ، مفيدة .. أو « هرش عقل » مثل مؤلفات أجاثاكريستى البوليسية !

***

* مدرسة طنطا الاولية وعمرى ٩ سنين ، بوادر فنية .. حفلة المدرسة على مسرح البلدية ، غنيت لأم كلثوم « انتى فاكرانى والا ناسيانى » ، أداء كاللحن

طبق الاصل ، مع الفارق فى الصوت ! صمتت الصالة ، بعد أن كان يختلط فيها أصوات باعة الكازوزة بقزقزة اللب ببكاء اطفال على صدور امهاتهم ! تصفيـــــــق الحاضرين وتهليلهم زرع فى نفسى بذرة امنية : ان اصبح مطربة !

* أوائل سنة ٤٩ .. الاذاعة تعترف بصوتى كمطربة ، وتذيع لى أول اغنية « حبيبى ما لقيتش مثاله » ، لحن أحمد عبد القادر ، فى القاهرة اسكن غرفة فى شقة احدى العائلات بشارع « الملكة » ، رمسيس الآن

جبريل نحاس صاحب شركة « نحاس فيلم » يعلن عن حاجته لمطربة تمثل دور البطولة فى فيلم « ست الحسن » . تقدمت للشركة . اختبار صورة وصوت فى ستوديو نحاس ، عقد بـ ٣٠٠ جنيه . أزمة مع أخى فوزى .. الله يمتعه بالجنة ونعيمها ، كان يخاف على من شوك الاشتغال بالفن !

* ٦٠ فيلما ، أذكر منها بالخير دورى فى « حياتى هى الثمن » ، عرض من ١٠ سنين . وصل أجرى لـ ٤ آلاف جنيه . لكنى من سنتها لم أدخل بلاتوه . أصلى «حرقت» زى ما بيقولوا بلغة السينما .. عملت ٦ أفلام فى موسم واحد . سقط أغلبها ، وسقطت معاه ! لكنى استفدت درسا للمستقبل : أن أقرأ قصة الفيلم بعناية قبل أن أفكر فى توقيع العقد !

* شفت لى «وداد الغازية» ؟ أول أوبريت بالمعنى . عملت قبلها « عفريت الست » و « جوز مراتى » فى فرقة فريد شوقى .. روايات غنائية .. لكن «وداد» شكل تانى ! كنت حزينة لظروف عائلية ، قلقة ومرتبكة لكنى كنت أول ما أدخل المسرح أبقى كلى وداد .. أرقص وامثـــــــل وأغنى فى نفس واحد ! وزير

الارشاد أيامها سلم على بعد ما شـاف الاوبريت وقال لى : « احنا كسبناك » ! وأنا حاسة انى أنا اللى كسبت فن الاوبريت . عاوزة أدليه مستقبلى . عاوز أتفرغ واتخصص له . يرضيني كام واتفرغ ؟ كانوا يدفعون لى ١٠ جنيهات فى الليلة فى « وداد » .. آخد ٥٠٠ جنيه مرتبا شـهريا ، وانقطع له ! الاوبريت هو الفن « الناقص نمو » فى بلدنا !

* لى أكثر من ١٠٠ أغنيـة ، أشهرها لحن فوزى « الودع » ، فوزى كان أكثر الملحنين فهما لامكانيـات صوتى .. لحن لى ٣٠ أغنية ألحانا على قد المقاس ! مطربة والا ممثلة ؟ الاصل عنـدى الطرب .. يعنى : مطربة ممثلة !

دخلى من فنى الآن : ولا مليـم ! بأقول لك من ٧ سنين وأنا فى حالة بطالة تقريبا ! أكبر دخل لى ، سنة ٦٠ وصل لحوالى ٢٠ ألف جنيه ، ضاعت كلها سدادا لديون فيلم « بور سعيد » ! احتقر الفلوس .. أعاقبها بأن أصرفها !

* الزمن أخد منى حاجات كتير ، أخد منى أعصابى .. كنت هادئة باردة الاعصاب ، أصبحت أعيش فى توتر دائم ! كنت أنام ملء جفونى بعد دقيقـة ، أصـبحت اتقلب مع الارق كل ليلة ساعات من العذاب ، أقطعهـا بقراءة كتاب ! مريضة .. عندى آلام مستمرة فى ساقى وفى ظهرى . لم يفدنى اى علاج . قال الاطباء : التهاب فى الاعصـــاب ، وقالوا : خلل فى الدورة الدموية ، وقالوا : آلام روماتزميـة .. والحقيقة التى أحسـها وأملأ بها مخاوفى اننى مريضة بالكارسونويد ، نفس مرض اخى فوزى .. من يشفينى من مرضى ، أو من مخاوفى ؟!

❋ لم امر بفترة مراهقة بالمعنى .. وعيت لقيتنى فى حضن العريس .. فقد تزوجت لاول مرة وانا بنت ١٥!

❋ أنا ست متزوجة الآن .. لكن بعيدا عن ظروف ازمة طلاقي من فريد ، استطيع ان ارى بوضوح أسبابها الحقيقية : حرص زائد مني على كرامتى .. واساءة استعمال من فريد لحريته التى كنت اعطيها له بكرم ! واى زوج ــ اعتقد ــ فى صراع دائم بين الحلال .. والحرام ! أصل الحرام طبق متفطى ومرغوب !

❋ بالمعنى اللي بتقوله عن الصداقة ، عندى صديقتان: ليلى فوزى ، ونهلة القدسي . أومن أيضا بصداقة الرجل ، والرجل صديقى : جلال معوض !

❋ تعلمت فى مدرسة الحياة ، مدرسة الناس، تعلمت الحرص فى المعاملة والشك قبل اليقين . وان « سوء الظن من حسن الفطن » فعلا حديث شريف عالى الحكمة ! تعلمت أن الانسان كل يوم يتعلم، وانه لايتخرج ابدا من مدرسة الحياة ، الا عندما يخرج منها ! تعلمت أن أى حكم ليس نهائيا .. فالحقيقة نسبية.. والاحكام والمواقف أيضا نسبية .. اذن من الممكن دائما اعادة تقديرها والرجوع فيها !

❋ بناتى الـ ٤ .. أتمنى أن أسقيهن من تجاربى ما لايشل فيهن شوقهن الى تجاربهن الجديدة ، اتمنى ان اجنبهن التطرف فى أى شىء .. فالتوسط عقل .. والعقل زينة !

❋❋❋

❋ عبيطة ، وحياة ربنا أنا عبيطة!.. فى سذاجة فلاحة ترى « البندر » لأول مرة !.. ساعات أصدق حاجات ماتتصدقش.. أول ما اتجوزت فريد ــ أول فبراير ٥١

ـ سكنا فى عمارة الشمس فى شارع قصر العينى، فريد طالع فى يوم نفسه مكروش وعرقان .. « مادريتيش.. موش عم فضل البواب ، الاسانسير نزل عليه بططه.. اتلموا الناس .. شالوه .. وبعدين اتنين مسكوه من يمة .. وأتنين من يمة .. وهب شدوه قوى.. اتعدل جسمه ورجع زى ما كان تانى ! » .. صدقت وطلعت اجرى أشوف عم فضل ازاى فردوه بعدما اتبطط ! ؟ نده لى فريد : « انتى صدقتى برضه ياعبيطة .. دانا بأهزر » !

* فى شخصيتى شىء من الرجولة ! .. مثلا ، ما احبش أعيط قدام حد ، حتى لو كان جوزى .. أحس ان الدموع ضعف .. وانا أكره أن إظهر أمام مخلوق بضعفى !

* احساسى الجوانى قوى : ان مستقبلى فى اولادى .. وليس فى فنى ! ؟

***

قلت لوداد الفازية ! ..

* الاتصال بالفولكلور المصرى « ا.ب » اتصال الفن بالجماهير .. رايك ايه فى الاغنية الفولكلورية بصورتها الحالية ؟

ـ مفيش أغنية فولكلورية بالمعنى ، باستثناء «بلادى بلادى » لحن سيد درويش ، الذى يغنيه الآن محرم فؤاد. ماعدا ذلك ألحان خليط بين الفولكلور والهرمنة الغربية ، وليس هكذا ينبغى أن نتناول الفولكلور .. اننا نصبح كمن يأكل الملوخية .. بالشوكة !

* ومن يقدم الاغنية الشعبية بصورة اليق والأصل محرم فؤاد ، محمد رشدى ، عبد الحليم ، هدى سلطان ؟

ـ محمد رشدى .. لونه الغنائى يصلح نواة لاحياء الفولكلور !

* كيف ترين اذن أعمال المسرح الغنائى الفولكلورية؟

ـ ينقصها التركيز لتساعد المتفرج على استيعابها وترديدها .. حد خرج من « وداد » أو « هدية العمر » يردد لحنا سمعه ؟ ! .. واذا لم يردد الشعب فولكلوره المستنبط منه ، فهذه شهادة ناطقة بسقوط ذلك العمل الفولكلورى فنيا !

* وشفل زكريا الحجاوى بتاع زمان ؟

ـ زكريا بعد دراسته ومعايشته الطويلة للفولكلور المصرى ، أصبح أقدر الناس على أن يستنبع منه صورا فنية غنية .

سمعت له « أيوب المصرى » فى الراديو ، بكيت بكاء واصبحت أبكى كلما سمعت لحن أيوب .. ولو فى ملهى ولو كانت هناك راقصة ترقص على انغامه !

* لماذا تخاصم السينما أصولنا الفنية الشعبية ؟

ـ غلطة كبيرة .. مع انها نبع غنى ، وأى عمل فنى يستوحى أصولنا الفولكلورية نجاحه مؤكد بكل مقياس .. حتى مقياس شباك التذاكر !

* فى دنيا الفن .. أيهما أولى النهاردة بالاهتمام : الترجمة والاقتباس .. أو الاتصال بأصولنا الفولكلورية نستنبطها ونطورها ؟

ـ أن نتصل بأصولنا الفنية الشعبية .. هذه هى القضية .. أما الترجمة والاقتباس فلهما دورهما الثانوى !

* بين الادوار الفولكلورية .. نفسك فى دور ايه ؟

ـ دور ناعسة أيوب ، يأسرنى وفاؤها !

* ايه فيك غلاب : شخصية بنت البلد التى ركبت القطر من طنطا للقاهرة درجة تالتة .. والا شخصيـــة الفنـــانة التى تكسب من غير عـــدد ، وتلبس أغلى مما تقلع ، وتأكل من فريزر الثلاجة ؟ !

ـ أنا بنت حى اسكاروس .. طلعت والا نزلت !!

فايدة كامل:
.. فى السن الخطرة!

« قولى : سين ! » .. فايدة كامل نطقت الحرف بلثغتها المعروفة ، لثغة خفيفة تبقى على حرف السين، ولا تحوله الى ثاء بالصورة الكاريكاتورية التى ترسمها لها لبلبة ، كلما قلدت فايدة على المسرح ! ولثغة السين عند فايدة لم تقفل فى وجهها الطريق الى الميكروفون، بالعكس أصبحت من علامات صـــوتها المتميزة ، ولا ينافسها فى هذه العلامة غير محمد عبـد الوهاب الذى ينطق السين ثاء وتحتها شرطة ! وفى علم الاصوات . يقولون : « الحرف سليم .. ما دام يوصل المعنى ، ولا ينقلب بالنطق الى حرف آخر » !

ومن سنة ٥٠ الى يناير ٦٤ وفايدة تكافح فى كليـة الحقوق بجامعة القاهرة ، وشوقها فى الليسانس، لكنها عندما حصلت عليه لم تشتغل به فى وظيفة ، انطلقت فى المضـــمار السيـــاسى . وعنـــد فايدة يمتـــزج الفن بالقانون بالسياسة ، وتطلع هى بفكرة تحويل قطاع الفن من « قطاع خدمات » الى « قطاع انتاج » .. يتحقق ذلك بتصدير الفن والفنانين من القاهرة الى كل الاسواق العربية والعالمية الممكنة .. وبهذا تضمن ايرادا سياسيا ومعنويا ، فوق الايراد المنتظر من العمـــلة الصعبة ! والفكرة محل دراسة ، والفكرة «تسيس» الفن ، وتستثمره دوليا فى خدمة المجتمع !

معاك يا فايدة :

* عبد الرحمن الخطيب الحلاوى، اسم جدى لوحده وأبى محمود كامل ، الاسماء فى عائلتنا بالكبشة !.. أخى سليمان يحمل وحده اسم : محمد سليمان جميل ! نبقى اسمى على بعضه : فايدة محمود كامل عبد الرحمن الخطيب الحلاوى !

١٦ يولية ٣٢ ، فى بيت العائلة بشارع المحجر بالقلعة أبى كان أيامها مدرسا فى مدرسة راتب باشا الابتدائية

كلنا ٩ ، ٦ بنات و ٣ صبيان ، أنا السادسة بينهم ، فوق أختى أميرة كامل بسنتين .

* ٢٧ سنة تعليم ! قسم الروضة فى مدرسة سوهاج الابتدائية ، مدرسة البهية البرهانية الابتدائية بالحلمية أخذت الابتدائية من غير تفوق سنة ٤٢ !

دخلت السنية الثانوية والمعهد العالى للموسيقى المسرحية مع بعض فى المدرسة للظهر، وفى المعهد بعد الظهر، والليل للحفلات والافراح ، كريمة السعيد ناظرة السنية أم ومربية .. كانت تشفق على من المجهود فتأمرنى فى حصص الاشغال والالعاب أن أتوجه الى صيدلية المدرسة .. وأنام ! لولا رعايتها ، وفيتامينات أبله صديقة «حكيمة المدرسة» يمكن كنت بركت كالناقة فى منتصف الطريق !

توجيهى أدبى سنة ٥٠ ، ودبلوم المعهد العالى للموسيقى المسرحية قبلها بسنة ، تحسبها تلاقينى سقطت فى ثانوى سنتين ، فوق الـ ٦ سنين مدة الدراسة أيامها . يستهوينى المنطق القانونى وأنا أتصفح كتب أخى سليمان جميل الذى سبقنى الى كلية الحقوق ، وتخرج مثلى بعد ١٤ سنة ! دخلتها ، كنت قد تزوجت وأصبحت أما ، لكن أمنيتى التى ملكتنى أن أصبح

أما جامعية ، تحققت امنيتى فى يناير ٦٤ ، دراســة القانون تضبط ذهنية الانسان ، وتعطيه احساسا دائما بالامان والتوازن بين ماهو «حق» .. وماهو «واجب»!

* لم اقرا كتبا غير مقررة ، الا فى مرحلة الجامعة ، توسعت فى القراءة عن الاشتراكية ، وعن اليوجا كفلسفة ورياضة روحية ، تعلمت من اليــوجا كيف انام كلمــا انتابنى ارق ! تعلمت منها معنى السعادة والشجاعة ! الاهرام والجمهــورية ، الـكواكب وصــباح الخير .. صحافتى المفضلة !

* عمرى ٤ سنين ، على سطح بيتنا بالقلعة ، وايقاع صفيحة عسل فاضية ، اغنى لنفسى !.. لأم كلثوم .. قلت : «طال انتظارى» ولليلى مراد « ياما أرق النسيم» وغنيت لعبد المطلب « بتسألينى باحبك ليه » .. أول نبت فن !

عاوزة مراية اشوف فيها صوتى .. اذن اخرى غير اذنى .. لقيت مرايتى فى قعدة عائلية وعمرى ٧ سنين، مختار التتش ـ المرحوم ـ ابن عم والدى ، وكل اشقائى واخواتى البنات ، كلنا قاعدين فى شكل دايرة فى صالون بيتنا ، سمر ، والغناء بالدور ، عدانى الدور، صرخت ، انشلت وانهبدت ، سكتونى.. « ياجماعة خلوها تغنى.. خلوها تتسد » ! طلعت السطوح جرى ورجعت بصفيحة العسل الفاضية ، فرقتى الموسيقية ! غنيت « ياما أرق النسيم » لليلى مراد ، وجوم ، سمع هس ، تصفيق اعجاب ، ابى حضننى واخذنى على حجره بقية السهرة بعد يومين جاب لى عبده قطر وعبد المنعم عرفة وفؤاد محفوظ يدرسون لى أصول الموسيقى العربية ، ويدربون صــوتى على التواشيح القديمة . اصبحت « مشروع مطربة » باعتراف العائلة !

* عازف الـكمان اسماعيل رأفت سمعنى ، قدم لى فى « معهد فؤاد » . لقيت معى فى المعهد نجاة الصغيرة وأختها .. سعاد ؟ لأ .. أظن اسمها زينب ، فى حفلة المعهد السنوية غنيت نشيد « وطننا الـكبير» ، غنيته دويتو مع أخويا عبد الرحمن ، مصطفى رضا مديرالمعهد قدم لى فى الاذاعة ، اقتنـع بى مدحت عاصم مراقب الموسيقى بالاذاعه أيامها وقبلنى مطربة بالاذاعة وعمرى ١٣ سنة ! لحن أحمد عبد القادر «فراشة حيرانة» أول أغنية لى سمعها الناس فى الراديو ، لـكن ميلادى الفنى لم يعلن الا سنة ٤٧ عندما غنيت لحن‌أخى عبد الرحمن « ليااليك ياقمر» .. ياسلام .. الاغنية دى عاشت معايا فى الحفلات لغاية سنة ٥١ !

* بدأت أتجه الى النشـيد الثورى ، وثوار يوليو مازالوا بسلاحهم !.. غنيت « مايضـيعش حق وله مطالب» فى حفلة بمعهد الموسيقى خريف سـنة ٥٣ وتتابعت أناشيدى : « دع سمائى » و « حاضرب لآخر نقطة فى‌دمى». و«عادالسلام يانيل»أيام العدوان. ارتبطت بعدها بأحداث الثورة العربية . والفضل لصوت العرب.

غنيت لـ « ثورة الجزائر » و « شـــعب العراق » و « البركان العربى » فى فلســطين ، وثوار اليمن وأفريقيا ، جاءتنى خطـابات المسـتمعين من كل مكان باسم « السيدة مطربة الاحرار » !

والخط العاطفى فى أغنياتى ماشى لم ينقطع .. غنيت للبنـات « أنا فت ١٦ سنة » وكنت فتها فعلا ب ١٠ سنين ! غنيت « يا واد يا سمارة » و « أتوب وأرجع لـكم » وللسنباطى « اتصالحنا » ، فى ٢٢ سنة غناء غنيت اكثر من ٥٠٠ أغنية ونشيدا .

* أجرى فى الاذاعة ١٠٠ جنيه فى الاغنية ، فى الحفلة

ما بين ٨٠ و ١٠٠ جنيه فى القاهرة ، ومن ٢٠٠ الى ٣٠٠ خارجها ، طبعا باروح اغنى فى افراح ، انا كنت لسه سهرانة فى فرح امبارح ، ليلة الفرح فى رايى اجمل ليلة يمكن ان يشارك فيها الفنان . فى اى فرح أحس كأن الفرحة فرحتى !

* أحلل لك صوتى علميا .. مساحته ١٢ درجة صوتية تبدأ من درجة القرار « الحسينى عشيران» الى « جواب البوسلك » . والسلم الموسيقى ٧ درجات . اى ان صوتى أوكتاف كامل و ٥ درجات صوتية ، ومساحة صوتى تكفينى وتريح أى ملحن يلحن لى !

* ظهرت على الشاشة فى ٣ أفلام : « انا وانت » و « على قد لحافك » سنة ٤٩ ، و « أرض السلام » مع فاتن حمامة سنة ٥٦ . سينما تانى ؟ توبة !

* الله — لا الزمن ! — هو الذى يعطى ويأخذ ، أعطانى اكثر مما طلبت : زواج مستقر وسعيد . واولاد يضرب بهم المثل ، ومال اكثر مما أحتاج ، انا عاجزة عن حمده ، أغطى عجزى بتهجدى وصلاتى .. فانا — استغفره — من عباد الليل !

***

* فى السن الخطرة — المراهقة — كنت مشغولة بدراستى المزدوجة وفنى. وكان أبى حارسى. كان يبث فى نفسى دائما خط دفاع ضد غرائزى .. يقول لى ويكرر كلامه : « يا بنتى : كل من فى الوجود يطلب صيدا .. غير أن الشباك مختلفات » ! الحقيقة عقدنى من الجنس الآخر ، لدرجة اننى كنت كلما سمعت كلمة اطراء بريئة لذكائى او لحذائى انتفض متنمرة ، وآخذ من قائلها موقفا نفسيا عدائيا !

* لواء محمد النبوى مدير مكتب السيد ممدوح

سالم رئيس مجلس الوزراء ، زوجي . تزوجنا بالطريقة العائلية التقليدية .. بنتان : نوارة وايناس . كلية البنات . وولد : محمود . الاورمان النموذجية . لا. الآن فى بيتنا ديموقراطية عائلية ، كل أمور العائلة أناقشها مع الاولاد ، والرأى الصائب للأغلبية !

* عاطفية فى البيت ، أعامل زوجى وأولادى بعواطفى وعقلانية فى الشارع ، أعامل الناس بالمنطق ، ملتزمة ، مخططة ، لا ... شجاعة برضه .. لو لقيت حرامى فى شقتى قد أقاوم عنفه بعنف ، وعندى رصيد من حركات المصارعة اليابانية .. وربما عفوت عنه اذا أشفقت عليه لظروفه !

***

معايا يا فايدة ! ..

* لكل شعب فى الدنيا نشيده الذى يترنم به فى المناسبات ، الا احنا !.. فين نشيدنا الشعبى ؟

ـ لم يولد بعد ، يمكن لمركزنا الثورى النامى المتغير.. المؤلف عاجز عن احتواء حركتنا الثورية والتعبير عنها بشمول وتشوف ! وعموما « الله أكبر » بيعتبر نشيدنا القومى مؤقتا .

* ما هى مواصفات الكلمة فى النشيد القومى .. المعانى السامقة التى تتخيلين أن يزرعها المؤلف فى صياغته للنشيد ؟

ـ أولا : ضرورى أن تتصف الكلمات بالتعبير القومى .. وبالعمومية والرمزية ، فلا تعبر عن حدث ثورى بالذات تفوت مناسبته ويصبح تاريخا !.. والمعانى السامقة كثيرة : الحرية ، العدالة ، الانتاج ، الاخلاص ، الاحساس بالمسئولية القومية فوق المسئولية الشخصية التضامن والوحدة ، الايمان بالله .

* ومن ترشحين لصياغة كلمات النشيد ؟

ـ قدرة صلاح جاهين !

* ومن ينشده ؟

ـ المجموعة .. وصوتى شعاع يشارك مع أصوات المجموعة !

ماجــدة :
كلى عاطفة .. كلى عناد !

ألو ياطبيب . الو يامستشفى . الو ياموزع . الو يا نقـــاد !.. تليفونات فى تليفونات ، وبين التليفون والتليفون مكالمة ترنك من بيروت ! البنت حالها ملا بالها وفاض عليه . وتداعت عليهـــا الـكوارث كما تتداعى المعانى فى راس مضطرب .. تلفت أعصابها ، انسلخت، أصبحت كأسلاك عارية فوق الجلد ! وفى ليلة ســهر، سابتنى لحظة ودخلت الجناح الآخر من شقتها ـ ٩٢ شــارع النيــل. تليفون ٨١٧٩٩٥ ـ صرخت بصــوت مذبوح ، بكت بنهنهة من تغلبه ظروفه بعد أن اعتــــاد العمر كله أن يغلبها ، ثم سقطت فى غيبة طويلة عن وعيها!

مالك يا « فوفة » ؟

... « ماما جت لها جلطة عملت لها شلل نصفى ، وماتت الله يرحمها ! اخويا توفيق عمل حادثة بعربيته انكسرت فيها رجله اليمنى كسرين ، عربيتى الاستيشن اتدششت فى مصادمة ، والحمد لله ماكنتش فيهــا ! النقاد بيهاجموا فيلمى الجديد هجوم من يفتعل خناقة! حاسه انى لوحدى ! حاســه انى زى طور المصـارعة والمتادور بيرشقه بسيوفه ! صعبان على ! » ...

وأسى حقيقى ملأ أنفها بالدموع .. لـكنها ضبطت نفسـها بسرعة وقدرة عنــدما دخلت ابنتها « غادة » وراحت تغنى لها : « ماما زمانها جايه » أغنيــــــة الصــغيرة المفضــلة من كثرة غيـاب أمهـا عنهـا .. غريقة فى عملها وحالها !

سيبك يا ماجدة من الشجن .. نتكلم فى الزمن !..
* اسمى فى شهادة الميلاد : « عفاف على كامل عبد الرحمن احمد الصباحى » . واسم الدلع « فوفة » .

تواريخ : ٦ مايو ٣٧ ، ١ مارس ٦٣ ، ١٦ مارس ٦٤ بالترتيب : ميلادى، زواجى، ميلادغادة.. تاريخ طلاقى؟ موش فاكرة !

* أول منظر ثابت فى ذاكرتى منظر بيتنا فى شارع السكاكينى ، عمرى أقل من ٤ سنين ، ساعة عصرية ، قاعدة على ترابيزة السفرة فى الصالة ، ودادة نوارة تغمس لى البقسماط بالشاى ، وأبى نائم ، والشقة هس ! ضرب الجرس ، ناس يسألون عن بابا ، ردت دادة نوارة بتعليمات هامسة من أبى : «على بيه خرج» سبت البقسماط يغرق فى فنجان الشاى وقلت لهم : « ماتصدقوهاش.. بابا جوه عندنا ! » .. أول علقة من بابا أخدتها لهذا السبب !

* بتقول : صحيح كان عندى دادة ؟ ! فاكرنى بافشر؟! لا دانا مش راضية أقول انه كان عندى « دادتين » ! أنا جدى الكبير احمد الصباحى كان عضوا فى مجلس شورى القوانين ، كان يملك ٧ الاف فدان قطعة واحدة، كان يملك قرية بكل زمامها ، قرية مسطاى مركز قويسنا منوفية ، وكان عنده ٤٥ جارية ، و ٣٦ زوجة ، حريم! لكن العائلة تفتتت عندما اشتركت فى اشعال ثورة ١٩، بطش بها الانجليز ، وصادروا أغلب أملاكها ، يوسف الصباحى جدى لأمى نفوه الى مالطة مع الخديو عباس حلمى ! عبد القادر الصباحى عم امى شنقوه فى ميدان السيد البدوى بطنطا !

لم يصل لأبى من ثروة العائلة غير ٩٠ فدانا ، و ٣ عمارات فى الاسكندرية ، باعها كلها و « فنطز » بثمنها

فى شبابه ! وورثت أمى ١٢٠ فدانا ، لم يتبق منها الآن غير ٤٥ !

... يعنى : أنا بنت ناس !

* انفصل أبى عن أمى بالطلاق وعمرى ٤ سنين ، حتى لا تشعرنى أمى بالصدمة أدخلتنى القسم الداخلى بمدرسـة « جابيس » العبرية بجاردن سيتى ، كنت سمينة ، متر مربع ! تشوفنى تقول دول بيرضعونى فتة! وشعرى أسود خيلى ، كثيف وناعم مثـل القطيفة ! « مدام ربيـكة » مدرستى كانت تقرصنى من خـدى وتقول لى : « ياقطتى » !

كنا نصلى كل صباح باللغة العبرية ، اليـد اليمنى فوق الرأس . وأصـابع اليد اليسرى تغمى العينين. واللسان يرطن : « شماى ازرائيل ، أدوناى اليهينو ، أوناى ايخات ، باروخ تشام ، كوبول مالخوتو ، يولام باين » آية من التوراة تشبه فى معانيها سورة « قل هو الله أحد » !

« تيتة نظيرة » جدتى لأمى غضبت منى لانى أصلى صلاة اليهود. علمتنىالفاتحة والتحيات وتسابيح الصلاة واظبت من يومها على صلاتى حتى سن ١٤ .. ثم انقطعت!

* دخلت مدرسة البون باستير. بعد ٥ سنين وصلت لشهادة « البريفيه » ، كنت «لبلب» فى اللغة الفرنسية، أما الانجليزية فكنت فيهـا بليدة بلادة ! كان ترتيبى دائما الثانية على الفصل ، ولولا عقـدة الانجليزى كنت اطلع الاولى ! كانت امنيتى أن أطلع محامية .. أو زعيمة نسائية كبيرة ! حققت « زعامتى » فيما بعد ـ لاشك ـ فى السينما !

***

* لم يخطر على بالى أن أشتغل بالسينما ، وأن كنت

أيامها من عبادها وروادها ! كانت نجومى : جنيفرجونز، أوليفيادي هافيلاند ، يحيى شاهين ، وراقية ابراهيم ، باسلام على « الاستاذة » راقيــة وهى بتقول فى فيلم « زينب » : « بكره والا بعـــــده حموت يا أم .. وصيتكو اخواتى .. لما تجوزوا حد منهم ماتجوزهش غصبن عنه .. أحسن ده حرام » !

كان لى ٣ صديقات زميلات فى المدرسة ، يونانيات : كاليوبى ، فورتينيه ، زويا .. كان كل طمــوحهن أن يشتغلن فى السينما ، فى يوم قلن لى : « تيجى معــانا نروح الاذاعة علشان يشغلونا فى .. السينما ؟ ! » .. رحت معهن بدافع أن أدافع عنهن وأمهــد لهن العمل بالسينما .. عن طريق الاذاعة ! قابلنــا المذيع حافظ عبد الوهاب مدير اذاعة الاسكندرية الآن ، ضحك معانا وضحك علينا وقال : « أما تكبروا يابنــات وتخلصــوا المدرسة .. ابقوا تعالوا أشغلــكم فى السينما » !

المهم ان انا اللى كنت غاوية دراسة القانون . طلعت ممثلة ! وزويا وفورتينيه وكاليوبى درســــــوا حقوق فرنساوى !.. شوف النصيب !

* شافنى زكى طليمات قال لى : انت ياشاطرة تنفعى فى السينما » ! تكررت هذه الجملة على أذنى ، حتى اقتنعت بها ! اقتنعت أيضا بضرورة ان أثأر لزميلاتى اليونانيات اللاتى فشلت فى اظهارهن على الشاشة !

كان ذلك سنة ٥١ . صديقة لى من أصــل مجرى اسمها « مدموازيل سو » جارتنا فى شارع السكاكينى، عمها « مسيو سانبو » صاحب ستوديو شبرا ، كان ينتج فيلم « الناصح » لاسماعيل يس ، ويبحث عن وجــه جديد لبطولة الفيلم ، قدمتنى سو لعمها ، قال :« نعمل لها تست » ، ويوم الاختبار السينمائى كان يوما !..

ملأوا شـفتى ووجهى بالاحمر والابيض ، بنت ١٤ ، وأول مرة فى حيـاتى أستعمل التواليت ! وقفت أمام الـكاميرات لا أعرف ان كانوا يصورونى بالـكاميرا دى أو دى ! تايهة ومخيولة ! قالوا لى : امشى.. مشيت ، اقفى .. وقفت ، لفى لفيت .. تانى يوم مسيو سابو شاف التست ، عمل لى عقد ب ٢٠٠ جنيه ، ووقعت بأنى استلمت المبلغ مقدما .. بعدها قال لى : «الوجوه الجديدة خبيبى موش يمسك فلوس.. نجيب له فساتين كتير للفيلم معلهش .. مبروك عليك الفساتين » !

بدأ التصوير ، انقطعت عن الدراسة ، بعد أن حولت عنوانى الى عنوان صديقتى فورتينيه لتصل اليه خطابات الغياب ! والفرصة فى البيت لا تعوض ، فأخى توفيق فى سفر طويل ، وأخى مصطفى طالب فى كلية الشرطة ، وأمى فى مستشفى الدمرداش تجرى جراحة ورم ليفى .. كنت أخرج الى الاستوديو بالفسـتان ومن فوقه مريلة المدرسة امعانا فى التمويه !

* انتهى تصوير الفيلم وقامت القيامة ، فقد عرفت العائلة ! أخى توفيق قدم فى مسيو سابو بلاغا للنـائب العام ! أخى مصطفى هدده بأن « يروح فيه اللومان » اذا عرض الفيلم قبل أن يتخرج فى كلية الشرطة ! جاء الاعمام والاخوال من قويسنا منوفية ليسووا حسابهم مع البنت المفعوصة التى « ارتكبت » فيلما سينمائيا ! حبسونى فى البيت فلم أكمل الدراسة ، أمى وحدها ، الله يرحمها ، هى التى وقفت فى ظهرى .. قالت لهم : « اللى حصـل حصـل .. واهى زى ما كانت بتروح المدرسة تحت عنينا . تروح الاستوديو » !

ولم يعرض مسيو سابو فيلم « الناصح » الا بعـد سنة كاملة فعلا .. بعد أن تخرج أخى مصطفى فى كلية الشرطة !

* استأنفت العمل بالسينما تحت رقابة أفراد العائلة حراسة خاصة ترافقنى الى الاستوديو ، تفليــة دقيقة لــكل عقد .. وممنوع الادوار الخليعة ، ممنوع المايوه ، ممنوع اللمس ، ممنوع أن يقبلنى احد !

أول فيلم عملته بفلوس فيلم « ليلة الدخلة » جبريل تلحمى عمل لى عقد بـ ٢٠٠ جنيه ، وقبضتهم المرة دى قبل توقيع العقد !

مثلت بطولة بعض الافلام الفاشلة مثل «بين ايديك» و « دعونى أعيش » .. والفيلم الاخير كان من الممكن أن ينجح لولا جفاف قصته..كله عن استخراج البترول!

* انجذب أنتباه الناس لى فى فيلم « لحن الخلود » وفى فيلم « مصطفى كامل » كتب عنى النقاد .. قال سلامة موسى فى « الاخبار » : « هــذه الممثلة الصغيرة الــكبيرة ذكرتنى بسيلفيا سيدنى » !

عملت مكتب فى شــارع الساحة ، تليفون وسكرتيرة اسمها « سوزى » .. « واللى عاوزنى يجينى المكتب» !

مثلت دورا من أصعب أدوازى فى فيلم «مرت الايام» فى موسم ٥٤ دور انسانة فى كل مراحل العمر، من ١٤ الى سن الـ ٥٠ ! وفى حياتى الفنية أدوار أخرى صعبة ومتلونة ، أدوارى فى : أين عمرى ، جميلة بوحيرد ، المراهقات ، الحقيقة العارية ، ومن أحب .

* أنتجت ، ظهرت فى أفلامى وجوه جديدة أصبحت اليوم قديمة ومعروفة ، عد معى : زيزى مصطفى ، عمر ذو الفقار ، جلال عيسى ، محمــــد أباظة ، نادية النقراشى ، ليلى طاهر ، ايهاب نافع .. وغادة بنتى !

* التقيت بايهاب فى حفــلة كوكتيــل فى الســفارة السوفييتية ، كأننا كنا نبحث عن بعضنا ثم التقينا ! تأخرت عربيتى ، عرض على أن يوصلنى بعربيته الايزبيللا

السوداء ، وكانت توصيلة ! تزوجنا فى أول مارس سنة ٦٣ ، استقال « الرائد » ايهاب من القوات الجوية ليمشى معى فى شارع الفن !

... لكن لاسباب كثيرة ، تفرع به وبى الطريق .. اتفقنا ، وافترقنا !

* مسرفة جدا .. « تعليق ليس خبيثا ! .. : سابتنى ماجدة لتطفىء نور الانتريه .. ثم عادت لتستأنف الحوار!» أجرى ..٣٥٠ جنيه فى القطاع العام ١٠ و ٧ الاف فى القطاع الخاص ، عن التمثيل فقط ، وألف زيادة للانتاج ! كنت فى فترة مدينة ب ٥٦ الف جنيه للبنوك ولشركة مصر للتجارة الخارجية وبعض الاستوديوهات. أدفع ألف جنيه كل شهر سدادا لكمبيالات الدين ، انخفضت مديونيتى الآن الى ١٦ ألفا ! وكلام فى سرك ايجار مكتبى مادفعتوش من ٨ شهور !

... وهذا هو كل مكسبى من السينما !

* تسألنى عن مستقبلى فى السينما بعد ١٠ سنين ؟ أقول لك : بعد ١٠ سنين بالكتير سأسيب السينما وأتفرغ لبيتى ! السينما أعطتنى ، لكنها أخذت منى أعصابى وشبابى .. ولن أسمح لها أن تأخذ عمرى كله!

***

قولى لى ياقطتى ! :

* سر نجاح البنى آدم شخصيته الخاصة فى عمله وشخصيته العامة فى المجتمع . كيف صنعت شخصيتك الخاصة ، شخصيتك الفنية ؟

ـ بالاستقلال ، بالمحاولة الدائبة لصنع الجديد المعجز بالاعتماد على نفسى ، وليس على « الشلة » فليست لى أى « شلة » سواء فى الوسط الفنى أو الصحفى ! وعندما ظهرت لقيت فاتن حمامة وشادية

ومديحة يسرى يملأن الشاشة .. فكان لابد أن أصعد اليهن بشخصية فنية جديدة تفسح لى معهن مساحة على الشاشة !

* وامتى بالضبط شعرت باكتمال شخصيتك الفنية ؟

ـ فى فيلم « مرت الايام » .

* بعد كم سنة من اشتغالك بالفن ؟

ـ ٣ سنين .

* تعتقدين : لك مدرسة ؟

ـ مفيش كلام !

* مدرسة ايه ؟

ـ مدرسة الادوار الصعبة !

* ما وجه الشبه والتماثل بين فنك وفن فاتن حمامة ؟

ـ ... ان كلا منا على القمة !

* فيه فرق بين صوتك وانت تتكلمين معى .. وصوتك وانت تمثلين ؟ !

ـ أبدا .. الصوت واحد .. فقط فى أدوار الدراما الحزينة .. يتهدج صوتى وتظهر فيه بوضوح «بحته» المعروفة !

* ومن شخصيتك الاجتماعية : عصبية أنت .. أم باردة الاعصاب ؟

ـ عصبية جدا ! لو زعلانة منك اقاطعك ولا أتعامل معك ، ولو كنا انت وأنا وحدنا على جزيرة !

* ... عاطفية أم عقلانية ؟

ـ كلى عاطفة . كلى عناد . طفلة كبيرة » كما كانت تقول لى أمى !

* ... كم فيك من الذكاء ؟

– ... ما يكفى ليحسدنى عليه الناس ! عندى شغال اسمه سالم ، جاى من الصـــعيد ، من بلد اسمها سمصطا . طلب منى أن اشغله فى البوسطة . قلت له طيب أقعد لغاية ما القى لك شغل.. وكان يتصور أن من الممكن أن أشغله – بالتليفون – على بال ما يشرب القهوة ! المهم قعد سالم ، وكل ما التليفون يضرب يرد عليه ويقول : « أنا ســالم ، اللى جاى من سمصطا ، علشان أشتغل فى البوسطة ، ستى قالت لى اقعد هنا لغاية ما القى لك شغل .. مين حضرتك بأه ؟ ! »

... ساعات أسمع سالم بسذاجته وبراءته ، أقول لنفسى : ياريتنى كنت سالم !

* ... وكم فيك من الـكبرياء ؟

– ... لحد الضرر ، وضيــاع المصلحة ! ان دينى كبريائى !

* ... ومن الارادة والايجابية ؟

– ... ما كفانى لأن أكون من أردتها ، منذ اشتغلت بالفن !

* ... ترضين لابنتك « غادة » بصمة طبق الاصل من شخصيتك ؟

– ... انى أتمنى لها شخصيتى ، لـكنى لا أتمنى لها مهنتى !

سعاد حسني:
يتيمة.. في بيت بابا وماما !

نقطة بنقطة .. كأنها حنفية ماء مغلقة .. تحدثك سعاد حسني عن أيام صباها ! عيناها الواسعتان الجميلتان مسبلتان ، والاصابع العشر الدقيقة في يديها تغطي وجهها وعينيها .. جو من يتذكر أحداث بئر الماضي .. وربما كانت تصطنع لنفسها ظلمة كظلمة أحداث البئر البعيدة !

لكنها لا تلبث أن تحس انها كشفت لي من أحداث البئر المظلمة أكثر مما ينبغي ، أكثر مما يصح في تقديرها العاطفي الطيب أن ينسب اليوم اليها ! فترفع أصابعها، وتواجهني بعينيها الطحينيتين ، وتقول برجاء : «ماتخلي التفاصيل دي لقعده تانيه .. أقله اكون سألت ماما .. انا كنت لسه صغيرة خالص » !

لكني أحاورها أداورها. وتستسلم سعاد، وتعود فتصنع بأصابعها « شيشا » أمام عينيها المسبلتين ، قبل أن تغرق في البئر وتواصل الحديث !

وفي بئر ماضيها ـ الصراحة ـ نقطتان تتحرج منهما سعاد ويحمر وجهها خجلا .. ظروف اليتم المقنع التي عاشتها في بيت أمها بدون أب .. أو في بيت أبيها بدون أم ! فقد انفصل الزوجان بعد أن أنجبا ١١ ولدا وبنتا. وكانت البنت في الخامسة من عمرها ، عندما افترقا كل في بيت وحياة . وظلت ٨ سنوات تتنقل بين البيتين ، كالعرب الرحل ، تنقلت بالضبط ٨ مرات ، لكل مرة

فى ذاكرتها « قرصة » ألم ! لكنها لا تنكر أن ضياع الصبا وآلامه كانا هما الوقود « الجاف » الذى دفعها فى رحلة النجاح ! كيف ؟ هذا تفصيل آخر تقرؤه تاليا !

ونقطة الحرج الثانية فى بئر ماضيها هى نصيبها من التعليم ! من فى مثل هذه الظروف التعيسة يواصل تعليمه بنجاح ؟ ! بيت أبيها الخطاط الفنان المرحوم محمد حسنى ، يقع فى كعب سينما أوبرا وبطل باستحياء على الميدان الكبير ، وبيت أمها هناك فى نهاية شارع السكاكينى . وحسب موطنها بالطبع . تتغير المدرسة ! تنقلت من مدرسة لمدرسة ٨ مرات ! هذه الظروف القلقة لم تسمح لها بأن تصل فى دراستها أبعد من الابتدائية ، لكن عباس العقاد ـ صاحب الـ ٧٤كتابا ـ لم يذهب فى دراسته أيضا لأبعد من هذا الحد ، وأم كلثوم وعبد الوهاب كذلك ، أو دون ذلك ! ومافات تحصيله فى المدرسة يمكن بالجهد والارادة تحصيله فى عرض الحياة !

فجأة .. تسعد سعاد وهى تستعيد آلام ماضيها الحزين ، تضحك وهى تتذكر ، ربما لانها اليوم بمنجاة من هذه الآلام ، وربما لتؤكد لى بواقعية صدق الحكمة الانجليزية القديمة التى تقول : « هناك آلام مرة ونحن نعانيها ونتحملها .. لكنها تصبح حلوة عندما نتذكرها ! »

***

قولى يا سعاد .. قولى :

* أنا بنت حرب ! جئت للدنيا فى عز الحرب ، فى ٢٦ يناير سنة ١٩٤٣ .. يعنى يوم ٢٦ يناير هو عيد مولدى ، هو أيضا يوم حريق القاهرة ! وقد وعيت يوم احترقت القاهرة ، لكنى لا أتذكر شيئا بالطبع عن الحرب الثانية . وكلما احتفلت بعيد ميلادى ذكرنى لهب

الشموع بلهيب النيران ترتفع فى سماء القاهرة ، فى ميدان الاوبرا ، وبيتنا المطل على الميدان ـ بيت أبى ـ ينكمش كأنه يخشى النار ، وأختى كوثر تصنع لنا لقمة القاضى ، تقليها على نار غير النار ، ثم تبيعها لى ولاختى سميرة الطبق بمليم ! شغل عيال !

* تسألنى عن أقدم ما فى بئر أيامى ؟ لا أتذكر شيئا بالضبط ، آه .. تذكرت الآن حادثتين .. الاولى فى ساحة قصر كبير ، ربما كان قصر عابدين ، سرادق كبير ، أكبر سرادق شاهدته فى مأتم أو فرح فى حياتى ، لكنه كان فرحا ، بدليل اننى كنت هناك لأغنى ! لعله كان احتفالا بعيد جلوس الملك ، أو عيد وقوفه .. لا أذكر ! المهم اننى جئت مع أطفال بابا شارو ، سيارات ، جنود فى أزياء ملونة ، سيدات على أكتافهن فراء ، ورجال بالطرابيش وملابس السهرة الغريبة وعلى عيونهم «مونوكل» .. لكنى لم أر الملك ! وتأخرت بنا السهرة ، فرحت فى نوم عميق وأنا جالسة على كرسى صغير وراء الكواليس ، وأفقت على أنامل تربت على وجهى لأستيقظ ، كان دورى ، فقمت الى التخت المنصوب لأواجه هذه الوجوه الغريبة ، وأغنى ، ويبدو أنهم طربوا لى ، فقد صفقوا .. صفقوا طويلا .. فزعت من تصفيقهم ! ولست أدرى لماذا تصورت اننى ارتكبت خطأ ما يستوجب هذا التصفيق فبكيت من الهلع بصوت مسموع ! .. وجاء بابا شارو ليحتضننى ويهدىء من فزعتى أمام الناس ، فيزداد تصفيقهم ، وتزداد حدة بكائى .. ثم ينسحب بى الى ما وراء الكواليس لأجد فستانا جديدا وعلبة شيكولاتة فى انتظارى ، قطعة منها ملأت بها فمى ، فألهتنى عن مواصلة البكاء !

والحادثة الثانية بعدها بعام ، كان عمرى وقتها أقل

من ٥ سنوات ذهبت الى الاذاعة لاغنى فى برنامج بابا شارو ، وقفت على كرسى أمام الميكروفون ورحت اغنى على الهواء : «طولى شبر، وجهى بدر، صوتى سحر، كلى بشر » ! وقد كان طولى أيامها شبرا بالفعل ، شبرين على الاكثر ! انبسط لأدائي أحمد خيرت مؤلف الاغنية وملحنها ، فأعطانى « كبشة من الملبس » ، وعدت الى البيت لأجد أمى تجمع ملابسها وملابس اخوتى فى حقيبة قديمة ، وفى عينيها دموع ، بينما الغضب يسيطر على وجه أبى وهو ينفلت خارجا من الشقة و « يرزع » الباب وراءه بعنف !

... غادرت الشقة مع أمي واخوتي فى طابورطويل، تتقدمنا حقيبة الملابس القديمة ، سكنا فى شقة بشارع السكاكينى ، عرفت فيما بعد ان أبى طلق أمى ، افتقدت عروستى الصغيرة التى نسيتها فى بيت أبى ، وصديقاتى الصغار من بنات « الحتة » !

* تزوجت أمى ، نشب بينها وبين ابى نزاع حولنا كل اخواتى عادوا الى بيت ابى ، وبقيت وحدى مع امى وزوجها . دخلت احدى المدارس الابتدائية القريبة من البيت بعد عامين صحبتنى امى فى زيارة لابى . يبدو انها كانت قد اتفقت معه على ان اعيش هناك مع الاولاد .. فقد انتهزت فرصة انشغالى باللعب معهم ، وتسللت خارجة من البيت . بكيت بحرقة . ثم نسيت كل شىء بعد قطعة « كنافة بالصنيبر » قدمتها لى اختى كوثر !

*بعد اشهر استردتنى امى .. وبعد عام استردنى أبى ! تنقلت ٨ مرات فى ٨ سنوات بين البيتين . وسحبت أوراقى ٩ مرات من مدرسة لمدرسة ! كنت عند أمى عندما مرضت بالحمى . اخذنى ابى من المستشفى بعد ان تماثلت للشفاء واستطعت ان امشى دون ان « اتمكر »

على أحد !.. لكن الحمى تركتنى جلدا معلقا على شماعة من عضم !

*تزوجت اختى نجاة من « ابوطفلها » كمال منسى . استعدت عافيتى وبدات حيوية « بنت ١٤ » تتدفق فى جسدى وتملؤه بالدوائر ! كنت فى زيارة لامى عندما انتحت بى على جنب وسالتني : « تحبى تقعدى معايا هنا يا سعاد ؟ » .. اجبتها : « ياريت ياماما ! » ..

***

*صيف سنة ٥٧ .. الفنان عبد الرحمن الخميسى صديق خالى . كان مطهوما بتكوين فرقة انصار التمثيل المسرحية . دعاني لاتفرج على البروفات . بهرنى المسرح كنت أقف وراء الكواليس واعيد أداء بعض المشاهد التى شـفتها . لمحنى الخميسي ، خبط جبهته وقال : « هايلة .. فيك صدق فنانة لها مستقبل ! » .. ضحكت ولم اصدق ! اعطانى نص رواية هاملت تحفة شيكسبير وطلب منى ان احفظ دور « أوفيليا » . عشت الدور وحفظته عن ظهر قلب ، لكن الفرقة فشلت لعدة أسباب قبل أن ترتفع لها امام الجمهور « ستارة » !

*مسلسلة الخميسى الاذاعية « حسن ونعيمة » .. اخذها المخرج بركات ليخرجها فيلما لحساب شركة صوت الفن . كان بركات يبحث عن وجه جديد يمثل دور نعيمة فيصدقه الناس .. كانت وجهة نظره ان أى ممثلة مشهورة تمثل الدور ، سيقول الناس : « دى فلانة .. موش نعيمة ! » .. وهو يريد أن يقدم لهم نعيمة الفلاحة الساذجة المفرمة التى تعطيهم احساسا بأنهم يكتشفونها لاول مرة ! .. رشحنى الخميسى للدور:

* دخلت ستوديوناصيبيان ليجرى لى بركات الاختبار المشهور .. لحظة يحس فيها الوجه الجديد انه يملك

خاتم سليمان ، أو لايملك شيئا بالمرة ! طلب منى وانا امام الكاميرا أن أقول « سى حسن » بدرجات متفاوتة من الخجل .. قلتها ٣ مرات .. فى المرة الثالثة طلعت منى وانا اذوب خجلا بالفعل ! كنت احس انها فرصتى اليتيمة .. وان من ورائى ظروف يتمى المقنع فيما بين بيت امى وبيت أبى .. تشبثت بفرصتى كالغريق .. ولم أعرف انى نجحت الا وصوت المخرج بركات يقول : « برافو.. انت موش عاوزه تست . انت عاوزه عقد تمضيه حالا » !

*طلب الفنان محمد عبد الوهاب أن يرانى . زرته فى بيته بصحبة بركات . قال لى : « تعرفى تغنى ياحلوة ؟ » .. غنيت له « كل ده كان ليه » . انبسط قوى وقال لى : « ابقى غنى لنفسك كثير .. انت مستقبلك كبير» . عبد الوهاب يعتبر التمثيل « غناء » للمواقف الدرامية . وهو يحكم على وجوه التمثيل الجديدة بطريقتها فى الغناء !

*وقع معى بركات ٣ عقود الفيلم بـ ٢٥٠ جنيها فقط طلبت منه أن يختار لى اسما جديدا ، لكنه لم يجد اسما أرق منه .. سعاد حسنى ، اسمى الحقيقى .. فأبقيت عليه ! دخلت ستوديو ناصيبيان لأمثل دور نعيمة . جاءت فاتن حمامة لتعمل دوبلاج فيلمها « بين الاطلال » سلمت علينا كلنا ، ودخلت صالة العرض لتنفذ المهمة . انتهزت فرصة استراحة قصيرة وتسللت وراءها . استفدت منها ــ دون أن تدرى ــ درسا كبيرا فى فن الدوبلاج !

*بركات احتكرنى بالعقود الثلاثة ، وانشغل بفيلم « دعاء الكروان » . استأذنت منه ومثلت دورا صغيرا ــ ٥ دقائق ــ فى فيلم « ثلاثة رجال وامرأة » . مثلت

بعده دور اخت عبد الحليم فى فيلم « البنات والصيف » كتب عني النقاد يقولون : « وجه مصرى مريح يدخل القلب ، فيه مميزات فاتن حمامة الفنية ، لكنه يؤدى باستقلال ودون تقليد ! » .

تهافت على المنتجون ، مثلت بطولة ٨ أفلام فى سنة واحدة وحوالى ٩٠ فيلما ، فى ١٨ سنة فن ! من أعز أفلامى : « صغيرة على الحب » وهو فيلم استعراضي غنائى اغنى فيه لأول مرة ، وفيلم « القاهرة ٣٠ » وقد عرض فى مهرجان كارلو فيفارى سنة ٦٧ .

اعتبر « خلي بالك من زوزو » و « أميرة حبى أنا » ميلادا جديدا للفيلم الاستعراضي .. رأيك انت ايه ؟ !

***

أقول لك يا سعاد :

* ما الذى أعطاك مفتاح الشاشة الفضية : جمالك أو موهبتك أو صلاتك الشخصية الناجحة ؟

ـ سذاجتى ! كان كل المطلوب منى فى فيلم « حسن ونعيمة » أن أكون صغيرة وساذجة ، وقد كنت صغيرة وساذجة بالفعل ! يضاف الى ذلك صدق احساسى الفني .. فقد تربيت فى بيوت قلقة لكنها عامرة بالفن أختى سميرة كانت ترسم ، ونجاة تغنى ، وأبى ينافس بجمال خطه حروف الطباعة !.. يضاف الى ذلك آلام صباى التى دفعتنى الى أن احقق ذاتي واصبح شيئا ، اذا كنت قد أصبحت بالفعل شيئا ! وتشجيع عبد الرحمن الخميسي لي.. كان يقول لى : « انت احساسك مضبوط زى القهوة اللى باشربها ! » .. وحكمة قديمة قرأتها لسعد زغلول ، فيها يقول : « اذا قيل انك نابغة .. فدع الراحة ! »

* كل بنت تحلم بالستارة الفضية ، تكهربها الفكرة خاصة فى سنوات المراهقة .. ثم يتبـــــدد الحلم مع انحناءات نهر الحياة ، وتقنع البنت فى الآخر بستــارة شباك فى بيت زوجية من صنع النصيب ! كلمى البنت بمنتهى الصدق النفسى ، عن أسلحة الطريق الى الستارة الفضية ومتاعبها ؟ ..

ـ هناك الاساس : موهبة . واحســاس فنى .. بمعيار : ان لـكل فعل عند الانسان رد فعل قد يكون أكبر من الفعل ، أو أقل منه ، أو مساويا له تماما ، والانسان الذى يقابل الفعل برد فعــل اقل او أكبر ، لا يصلح للتمثيل ! الموهوب فنيا هو الذى يعطى الفعل رد فعل مساويا له .. بالمقاس ! يعنى اذا قرصتك الآن ، فأنت لست فنــانا اذا لم تحس القرصة .ــ. او اذا وقفت مفزوعا وصرخت بأعلى صوتك .. ولكنك فنان أكيد ، اذا رسمت على وجهك تعبيرا معقولا فيه مزيج من الالم ، والدهشة ، والتساؤل !

وهنـــاك الطريق : اذا أحست البنت انها موهوبة صادقة الاحساس بالمعيار السابق ، فعليهــا أن تجرى وراء الفرصة ، ولا تنتظرها ! .. أنا ذهبت الى مسرح الخميسى ، ولم ينتقل مسرح الخميسى الى بيت أمى ! عليها ان تتقدم لمخرج تليفزيون أو ســينما ، وأرشح لها من مخرجي السينما بركات ، وصلاح أبو سيف ، فاكتشاف الوجوه الجديدة فى دم الاثنين هواية ! وليس شرطا أن تكون جميلة ، حتى القبح له أدواره على شاشة السينما ! وأى أجر واى دور فى البداية لايهم ، المهم أن تتشبث بفرصتها وتؤديها بصدق ونجاح !

... ثم عليها بعــد ذلك أن تدرس النــاس وتعيش مشاكلهم ، الناس هم مادة الحياة ، والحياة مادة الممثل!

وعليها أيضا أن تشاهد أفلاما كثيرة وبانتظام .. وأن تقرأ !

* وماذا قرأت أنت ؟

– فى الاول قرأت كتاب «اعداد الممثل» لدستويفسكى

* تقصدين ستانيسلافسكى ؟ !

– بالضبط .. أصل اسمه صعب !.. وكتابه يقوم على أصول مسرحية معقدة .. قرأته فأحسست انى « ولا حاجة » وانى لن أكون فى المستقبل شيئا ! قرأت بعد ذلك سلسلة وزارة الثقافة عن فن السينما ، لم أستفد منها ، فهى تصلح للهواة المبتدئين !

انفتحت بعد ذلك على قراءة الادب . قرأت أعمال نجيب محفوظ ، وتوفيق الحكيم ، واحسان عبد القدوس ، أقرأ أحيانا الروايات البوليسية ، وأواظب دائما على قراءة الصحف والمجلات القاهرية والبيروتية .

* وأنياب الذئاب الجائعة فى الوسط الفنى ؟

– اى طمع جنسى فى بنت تشتغل بالفن ممكن أن يقف عند حده بكلمة جادة ، ولا احد يستطيع أن يأخذ من المرأة شيئا ، غصبا عنها ! والممثلة التى تعتمد على هذه الوسيلة القذرة لتصل ، ليست فنانة .. تبقى « حاجة تانية » !

* والشلل التى أصبحت فى الوسط الفنى قاعدة ونظاما ؟ !

– لكل قاعدة استثناء !

* قولى لى : استطعت أن تنتزعى لنفسك مساحة كبيرة على الشاشة .. أيهما أصعب : الحصول على مساحة من الشاشة .. أم المحافظة على هذه المساحة ؟

– المحافظة على النجاح أصعب بكثير من الوصول اليه !

* حدثيني عن آلام البنت المصرية ؟

ـ تاه منها الطريق ، أخذت حقوقها فى القانون ، فى الواقع لا ! الديموقراطية موجودة كنظام يسود المجتمع .. ربما .. لكنها مفقودة كنظام يسود العلاقات المنزلية ! ما زال الرجل هو السيد . ما زالت البنت تخطىء فتفقد عذريتها .. ويخطىء الرجل فلا يفقد عذريته ! مازال الشاب يمارس الجنس لسن متأخرة ، ثم يتزوج ، بينما تتردد البنت ألف مرة قبل أن ترتكب « الحرام » !

* كما تفهمين .. ما معنى الحب ؟

ـ الحب ليس وصفا ، الحب معاناة ! هل يستطيع أحد أن يصف بصدق شعوره ورصاصة تدخل قلبه؟ !

* افتحى قلبك .. حبيبك : من هناك ؟ ..

ـ لا أحد ، حتي شوف ! وحكاية عبد الحليم معى اشاعة قديمة عديمة الاساس . وقد يحدث أن يميل قلبى لأحد ، ثم لا يلبث أن يستعيد توازنه بفعل مشاغلى اليومية .

وصدقنى : لا وقت عندى الآن للحب !

... أسابيع ، وانتهت حكاية سعاد حسنى مع المصور صلاح كريم ، لم يكن حبا ـ تقول سعاد ـ ولم يكن زواجا .. مجرد علاقة فشلت قبل أن تنضج !

... شهور ، وتزوجت سعاد المخرج الشاب : على بدرخان .. ولو أنه يؤكد أنه هو الذى تزوجها !

نادية لطفي :
طبيعة امرأة .. وأخلاق رجل !

ضحكتها تتعشق !.. تتدفق بسخاء وصفاء .. طويلة وممدودة ومسترخية كعجينة العسلية في يد الحلواني !.. متكررة لدرجة انها تضحك بين الضحكة والضحكة .. عصبية حتى ليخيل اليك انها تغطى بضحكتها صراعا داخليا حادا هادر الصوت .. أو انها تضحك بدلا من أن تصرخ !.. لكن ولو .. ضحكتها تتعشق !

وسرها في صدرها ، تتنفس ، لكنها لا تبوح بسرها .. حتى ولا لصديقة مخلصة تنكشف عليها عادة وهي في الحمام ! عاوز تنرفزها اسألها عن جوانيتها ، عن خفق قلبها .. تختنق على لسانها العبارة ، وتسقط على اجابة السؤال شيشا محكما وسريعا كشيش الكاميرا .. وتقول لك بتوحش : اللى جوايا ملكى انا .. أتنازل للغير عن ملكيته علشان ايه ؟ !

وأعصابها سايبة كمفاصل حرامى متلبس بجريمته ! تثيرها كلمة فتجز على أسنانها ، أبى عندما يغضب كان يفعل مثلها ! لكنها تبدو في غضبها كقنبلة جميلة ونظيفة تقتل بدون ألم ! حيرتها في أظافرها ، تقضمها اذا داهمها موقف مثير للقلق ! عنيدة ومتمردة .. تهرب من الضرورى والملزم .. وتستجيب للاختيارى بشهية واخلاص ! لسانها موصل ردىء ، لا تجيد التعبير به عن نفسها .. باصعوبة مهمتى وانا أتذوقها بطرف عقلى ، لأنقل لك الآن مذاقها !..

يا نادية لطفى .. ؟

* نعم.. دلوقت اسمع الاسم أرد عليه! ماعندكش فكرة .. أصعب شيء أن تغير الواحدة اسمها .. تطلع من جلدها وتلبس جلد واحدة ثانية ! « بولا محمد شفيق» اسمى الحقيقى ، واسم الدلع « بومبى » . لم يهمنى اسمى الحقيقى وأنا أخلعه وألبس اسما جديدا. انما صعب على اسم الدلع ، احسست وأنا أغير اسمى أن أيام الدلع راحت !

أول اشتغالى بالسينما ـ التفاصيل بعدين ـ قعدت مع رمسيس نجيب ونيازى مصطفى نبحث عن اسم عربى .. بولا اسم خوجاتى خالص ! قالوا ليلى؟ قلت لهم : مراد .. قديمة ! قالوا : سميحة ؟ قلت لهم : أيوب ! فكرت شوية خطر لى اسم « نادية لطفى » بطلة قصة احسان عبد القدوس « لا أنام » .. الاسم رنان وناعم وبدا يشتهر بعد أن نشر احسان القصة ، ومثلت فاتن حمامة الدور فى الفيلم.. قلت لهم : نادية لطفى ؟ قال رمسيس نجيب : حلو قوى يا .. مدام نادية !

« مدام نادية .. خلاص حنصور يامدام نادية » .. يزعق نيازى مصطفى فى بلاتوه ستوديو نحاس ، وأنا أصور أول مشهد فى أول أفلامى.. أسرح والا أرد ؟.. واحدة صاحبتى كانت معايا فى الاستوديو قالت لى : « الحقى يابومبى .. بينادوا عليكى » قمت على البلاتوه جرى !

ماذا يأسرنى فى اسم « بومبى » .. مع انه اسم كلبة لولى عند واحدة صاحبتى ؟ !

* ما تحاولش .. ده سر ! » .. « تبقى عديتى ال ٣٠ بسنين » .. « طبعا .. أنا من مواليد ٣ يناير سنة ٣٨ » .. « أهو انتى كشفتى السر ! » .

* أبي محاسب قانوني ، حاسب فلم ينجب غيري ! طفولتي الاولى في بيت العائلة شــــارع فارسكور بمصر الجديدة ، في حديقة البيت العب أغلب النهار ، وكلب وولف قد النمر يحوم حولي ويحميني !

* ٤ سنين عمري .. دخلت مدرســـة « نوتردام ديزابوتر » . سمينة قد فيل صغير ، البنات ينادونني بتريقة مؤلمة « ترونجة هانم » .. أضحك معاهم على نفسي وأنا نفسي أعيط ! لبس الراهبات الابيض في أسود كان يثير في نفسي رغبة خبيثة في الضحك . أعجز عن كتم ضحكتي أثناء الحصة فتشخط في « الســور » « باولا .. آجونو » .. اطلع بره الفصل واجثو على ركبتي لآخر الحصة !
وكنت رغاية .. لدتي أن أكلم جارتي « والسور» تتكلم وتشرح .. اشمعني هي بترغى ؟ ! وتصطـادني اذن«السور»بحساسية رادارصواريخ.. تعاقبني بواجب منزلي ، أكتب فيه بالفرنسية جملة « لايجب أن اتكلم في الفصل » ٥٠ مرة .. اعتدت العقوبة لدرجة اني كنت أكتب الجملة ٣٠٠ مرة وأكثر ، على سبيل الرصيـد وكلما تكلمت في الفصل وعاقبتني ، قدمت لها الواجب من الرصيد الجاهز !
أخذت « السيرتيفيكا » ــ الابتدائية ــ سنة ٤٨ .
* دخلت مدرسة « سان شارل » الالمانية بباب اللوق ، لعبية قوي ! قليلا ما كنت أستمتع بالفسحة بين الحصص زي البنات ، كنت أقضي أغلب الفسح في « أوضــة الفيران » بأوامر مشــددة من « شيفستر سيسيليا » ناظرة المدرسة ! يا راجلَ فيران ايه ؟ ولا فيران ولا قطط .. مجرد بدروم كبير تحت المدرسة.. في ركن منه بيانو .. ولا فيه ولا كرسي واحد اقعـد

عليه .. أفضل واقفة متذنبة .. تعذبنى للحظة أصوات البنات وهن يلعبن فى حوش المدرســـــة ويستمتعن بالفسحة .. ثم أعتــاد الحبســة .. وأطل من نافذة البدروم على شارع يوسف الجندى ، أتسلى بمراقبة أحذية النــاس وهم يمرون من أمامى مبتورين ، كأنهم جميعا مجرد سيقان وأحذية !

* اتخطبت ، اتجـــوزت ، رحت مع زوجى الى الاسكندرية. خلفت أحمد ابنى، عمره دلوقت ١٩ سنة. راجل يعنى !

صوتى يعترض : « ليه الـكلفتة دى بقى ؟ ! جوزك السابق وعارفه .. « عميد بحرى » عادل البشارى ، احنا اتفقنا من الاول على الـكلام بمنتهى الصدق .. زى ما تكونى مسترخية على كنبة طبيب نفسى ! ؟ »

وحياتك بلاش اسمه ، أصلنا سبنا بعض ، ويمكن ذكر اسمه بيحرجــه ! المهم انه كان جواز عائلى .. البنت كبرت يبقى لازم نفرح بيها .. قلت زى بعضــه افرح معاهم ، والجوزت ! قعدت من مدرســة ســان شارل قبل ما آخد شهادة « الاوبرشبــولا » ــ تعادل الثانوية العامة ــ بسنة كاملة ، كل بنات شلتى ســابوا المدرسة ورايا ، وكل واحدة تعلقت فى ذراع عريس !

* زوجى كان راجل مودرن ، تقدمى جدا ، بعكس بابا ! عثرت على حريتى فى بيت زوجى ، وجدت نفسى بدات افكر فى مستقبلى ، هل كل مهمتى فى الدنيا أن الد واربى ؟ ! لابد أن احقق ذاتى ، لابد أن أعمل ، اعمل ايه ؟

فكرت أرسم ، أطرز ، أشتغل صحفية ، أو سكرتيرة لرئيس مجلس ادارة .. لـكن اشتغل فى السينما ؟ لم تخطر الفكرة على بالى !

* شتاء سنة ٥٨ ، فى زيارة عائلية للموزع جان خورى ، أخته صديقتى ، رمسيس نجيب معزوم عنده على السهرة ، شافنى . « تعرفى يا مدام بولا انك تنفعى فى السينما خالص .. عندى لك دور هايل !..» وشرح لى رمسيس فكرة الدور .. صحفية تساعد بتحرياتها خطيبها ضابط الشرطة فى القبض على مجرم هارب ، تتعرف على المجرم ، يأمن لها ، تغدر به وتسلمه لخطيبها ! الفيلم « سلطان » . والمجرم فريد شوقى ، أما الصحفية فكان رمسيس نجيب يبحث عن وجه جديد يمثل دورها .. وجه يقنع الناس برائحة الحبر والرصاص السايح !

اختبار للصوت وللصورة ، واختبار فى التمثيل ، بكيت فيه بدموعى وليس بنقط الجلسرين ! وعقد احتكار لمدة سنة مع رمسيس نجيب أمثل فيها فيلم « سلطان » بأجر ٥٠٠ جنيه ، والفيلم الثانى ب ٧٠٠ درس فى فن الالقاء على يد عبد الوارث عسر - حتة أستاذ ما يتعوضش ! - ثم دخلت ستوديو نحاس لأمثل دورى فى أول أفلامى ، نجح فيلم « سلطان » نجاح شباك وايراد ، لصق بى دور آمال الصحفية فى أخبار اليوم ، لدرجة ان أحد عمال السد العالى سألنى مرة : « صحيح ياست آمال حتسيبى الصحافة .. وتمشى فى السينما ؟ ! »

* أول متفرجة أحسست بنادية لطفى ، تلميذة أردنية من رام الله ، اسمها « هدهد ميخائيل » ، كتبت لى خطاب أعجاب ، رديت عليها : « قرأت خطابك ٥ مرات .. انه أول نور يسطع على!» هدهد أخذت الدكتوراه من جامعة لندن ، الآن .. وما زالت تكتب لى !

* أحسست أن نجوم السينما يبالغون فى أداء

ادوارهم مبالغة مسرحية ، لماذا لا يكون التمثيل طبيعيا يحاكى ايقاع تعاملنا العادى فى الحياة ؟ اعتنقت مبدا « الطبيعة » فى أداء أدوارى !

فيلم « حب الى الابد » فيلمى الثانى ، مثلته أمام أحمد رمزى ، كان وزنى ٥٨ كج ، وزن مثالى لمثل طولى، لم أكن أعرف أن السينما ـ بسبب التضخيم ـ تزيد الوزن ٥ كج تقريبا أكثر من الحقيقة . زكى طليمات كتب عن الفيلم .. « اثنان بمثل هذه السمنة الواضحة ـ يقصد أحمد رمزى وأنا ـ كيف يمثلان دورا كله غرام ؟ ! » .

وكتب مصطفى محمود : « القصة ساذجة ، والاخراج امريكانى .. وأهم ما فى الفيلم هى نادية لطفى نفسها ، وقدرتها على التعبير بوجهها ببلاغة ! » .. كلام مصطفى محمود زرع فى نفسى الامل ، وكلام زكى طليمات اسقطنى فى بئر من اليأس ! ورحت أفكر : امشى فى السنيما .. والا أبطلها ؟ ! لكننى أخذت درسا من كلام زكى طليمات .. عرفت أن التمثيل ليس مجرد أداء .. شكل وتكوين أيضا !

***

* مثلت حتى الأن بطولة ٦٥ فيلما ، لكن أغلبها أفلام هلس ! افلام قليلة اخذت فيها خطوة لقدام .. لكن موش هيه ! موش ده اللى فى دماغى لنفسى وللفيلم المصرى ! من الادوار التى أضافت الى : دورى فى فيلم « حبى الوحيد » مع عمر الشريف ، وفى « الخطايا » مع عبد الحليم ، وفى « السمان والخريف » مع نجيب محفوظ ، وفى « جريمة فى الحى الهادىء » مع رشدى أباظة !

* أنقر لك على بطن السينما المصرية بأصابع طبيب، وأشخص لك داءها : فقر فكرة ، فقر تكنيك ، معالجة قديمة ومعادة ، السينما عاوزة دم جديد ومكن جديد، قبل ما يقف حالها !

* أنا من جوه ؟ اكذب عليك . اداری . وقد أبالغ! اسأل غيرى .. يصدق عنى !

طيب اسمعى يا نادية رأى واحدة صاحبتك الروح بالروح ، وتوصيفها لجوانيتك : راجل لها كبرياء الرجالة وعنادهم .. حتى فى معاملتها معهم تعاملهم بندية ومساواة فعلية ! تحتفظ بأسرارها الشخصية فى بئر سحرية . تأمن لى أن أدخل عليها الحمام ، لكنها لا تستأمننى على أسرار حياتها الخصوصية ! فى حالة غضب دائم ، وتمرد دائم على الواقع ! تعامل الناس حسب سلوكهم ، وليس كلامهم .. « الكلام ببلاش وسهل ، أما السلوك فموقف عاوز صدق ومجهود » ! أشبهها بفرسة عربية عفية .. تلح عليها وتلزمها ، تهرب منك .. تسايسها تاخد عينيها ! تتعامل مع الدنيا بنفسية طفلة .. علشان كده باحبها زى بنتى .. مع اننا من عمر بعض !

***

صوتك يا نادية - لامؤاخذة ! - صوت راجل لابس فستان .. أو امرأة لابسة بدلة ! .. نتكلم فى «الصوت» بكل معنى :

* ايه رأيك فى صوتك ؟

- صوت عادى ، لا أخنف ، ولا أقرع ، ولا عارى من التعبير ، له شخصية مقبولة ومتميزة ، ممثلين سينما صامتة كتير فشلوا فى الاستمرار بعد أن نطقت السينما، لأن أصواتهم كانت بلا شخصية !

* البعض يقول أن صوتك ليست له «شخصية».. له « شخص » .. يعنى شوية رجالى ! ؟

ـ يوسف شاهين بيقول عن صوتى : « صوت طعم طعامة خاصة » ! واحسان عبد القدوس قال عن صوتى مرة : « له بحة تميزه بين ألف صوت » ! وصديقى المرحوم كامل الشناوى وصفه بأنه : « ليس رقيقا لحد التخاذل.. ولا عنيفا لدرجة الاقتحام .. هو مزيج من الاحساس والنضج » !

تعرف أن صوتى بصمة من شخصيتى : طبيعة امرأة .. وأخلاق رجل ؟ !

* بسبب صوتها .. قعدت كلوديا كاردينالى سنين تمثل بصوت غيرها .. كانوا بيعملوا لأفلامها دوبلاج ! واجهت نفس الصعوبة فى الاول ؟

ـ ابدا ، لو حصل يمكن كنت سبت السينما !

* ايه ملاحظاتك على الصوت فى السينما ؟

ـ حاجه ما تتسمعش ! ابقى قايله الديالوج واسمعه ما افهمش أنا باقول ايه ! مكن التسجيل مكن أثرى.. من ايام السينما الصامتة !

* والموسيقى التصويرية ؟

ـ أغلبها اسطوانات من السوق محشورة فى الفيلم، مع ان المفروض تنعمل لكل فيلم موسيقاه التصويرية الخاصة ، واذا نجحت ممكن تطبــــــع بعد كده على اسطوانات !

* طبقات صوتك .. تسمح لك تصوتى ؟ !

ـ دورى فى « المستحيل » فيه مشاهد كلها صراخ!

* أقصد الصوت البلدى « الحيانى » ؟

ـ ممكن قوى .. اذا كان ده شيء لازم للدور الذى أؤديه !

* والزغرودة المطوطة ؟ !

ـ أنا على زغروتة ولا زغروتة جمالات زايد فى « عيلة مرزوق أفندى » !

* بتغنى ؟

ـ اغنى لنفسى .. وتحت مسئوليتى الشخصية !

* بتغنى لمين وانت فى الحمام ! ؟

ـ الاغنية الاخيرة .. الاغنية الشائعة .

* والاغنية التى على لسانك اليومين دول ؟

ـ « شباب الحب » لعبد الحليم حافظ !

سميرة أحمد :

بذمتك .. أستاهل ؟!

حى «الابجية» فين؟ ما اعرفش ! قرب «الجيوشي» .. جيوشي ايه ؟ ! عند « القرافة » .. قرافة ايه ؟ ! قرافة كبيرة كده هناك ، اسمها ايه ؟ .. صحيح أما أنا عبيطة .. اذا كنت أنا ياللى اتربيت هناك وشفت فيها أول الدنيا ، موش عارفه .. يبقى انت حتعرف ؟ !

قصر الكلام .. بيتنا كان هناك فى الابجية .. منه للجبل .. تسأل عن بيت أحمد افندى ابراهيم خضير باشكاتب الاستئناف ، ألف يد تدلك .. البيت أصله كان معروف شمس .. لم يكن هناك غيره تحت بطن الجبل ! وفوق .. فوق .. قرب السحاب .. تكية التنابلة الاتراك .. فاكر بابا سرى ؟ كنت اطلع هناك أنا ونجاة بنت صاحب البيت ، بابا سرى يملأ لنا الحجر ذرة .. نرمى للحمام فى غية التكية ياكل ويمسح فى الارض منقاره ! ويغيب منا النهار فى قعدة حلوة وبريئة . طعام . وحمام . ونسمة صيف طرية يحجزها الجبل لنفسه ، فلا تسقط على القاهرة ! وأمى عارفه مكانى ، تستغيبنى . تبعت لى أختى خيرية على التكية . ننزل نفرق فى بطن الجبل .. نفوت على معسكر الجيش المصرى .. الحرب الاولى ايه ؟ ! الحرب الثانية طبعا ! والتجول فى الجبل ممنوع من غيبة الشمس لطلعة النهار .. لكن الاومباشى ثابت كان يعرفنا . يشخط فينا : قف من أنت ؟ ثم يبلع شخطته ويلم عنا سلاحه ..

« كتاكيت احمد افندى خضير .. اتفضلوا اجيب لكم بفاشة ! »

... ومن كام يوم ، جانى واحد صول فى الجيش.. طلب منى صورة عليها امضائى .. قلت له اكتبها باسم مين ؟ قال لى بدهشة وعشم : « باسمى ياست سميره يا نوارة الشاشة .. الاومباشي ثابت بتاع زمان » .. طوالى افتكرت أول أيامى .. أيام حى الابجية !

***

وكبرت سميرة بنت احمد أفندى ابراهيم خضير باشكاتب الاستئناف وطلعت الجبل من تانى .. جبل تانى .. جبل الفن ! رحلة طويلة نظمتها من حي الابجية الى فيللا دورين فوق سطح العماره رقم ٤ شارع ابن مالك على نيل الجيزة .. وفى الفيللا حمام سباحة وتليفون سرى رقم : ٨٤٨٧٢٧ !

الغرق مرق . والعيش ناشف . والموهبة تعطى ببطء .. ماسة تلمع ، لكنها لا تضىء ! رحلة ينكسر لها كتف رجل !

... ومعك يا سميرة .. من أول المشوار :

*« سمرة » اسم الدلع . صغيرة فى بيت العائلة ، وكبيرة فى بيت الزوجية ، والاسم يدغدغ أذنى .. حتى ابنتى « جليلة » تنادينى الآن : « ماما سمرة » ١٥ نوفمبر ٣٨ ، صدقنى ، فما دمت لم اعبر سن الاربعين ، فلن أكذب فى سنى ! شارع « فاروق » فى أسيوط ، يعنى صعيدية المولد ! البنت نمرة ٣ بين ٧ صبيان وبنات . اول صدمة فى حياتى ، كانت فى سور المدرسة !.. سور عالى وفيه حديد مدبب ، زى ما تقول مدرسة روضة ، بابا اخذنى من يدى اليها اول يوم ، قال لى : اشمعنى اختك خيرية فى سنة اولى

ابتدائى وما بتعيطش ؟ وسابنى وخرج بره السور . جريت وراه على الســـلم وقعت . بصنيت ، عينى اتخزات فى حديد السور المدبب ، بكيت دم ، وكرهت المدرسة كره ؟!

نفس المشــهد اعادته ابنتى جليلة ، من كام سنة ، قدمت لها فى الميردى دييه ، البنات صرخن فى وجههـا « جليلة بنت سميرة احمد » وهجموا عليها وباسوها البنت من الذعر اتبلت كعصفورة ، وآخر النهار قالت لى وهى تبكى : « شوفى لى مدرسة تانية يا ماما ، عارفة انهم بيحبونى ، لكن دول بيبوسونى كتير قوى ياماما » !!

* انتقل ابى الى القاهرة . حرب . وازمة مساكن مثل ازمة الايام دى مرتين .. تكومنا ٩ انفار فى غرفة ببيت عمى فى سوق السلاح ، كأننا نكتة عن أزمة المساكن!

دخلت مدرسة يوسف أغا الاولية . كنت ألفة الفصل وأول من تجيب على أسئلة المفتشين . ابله نبوية مدرسة الفصل كانت تطبطب على شـعرى كل صبـاح وتقول لى : ياسلام ياحلوة لو كنت اتجوزت ، كنت جبت امورة زيك .. لكن ياحسرة !

* ابى باشكاتب قد الدنيا فى محكمة الاستئناف . منظره كل يوم وهو يخب فى طريقة الى المحكمة ويتبختر ببدلته الصيفى البيضاء ومنشته الخيلى ، منظر ملوكى . لو كنت من الحكومة لاعطيت ابى ١٠٠ جنية فى الشهر لكنهم كانوا يعطونة ١٨ جنيها فقط ، على ٩ انفار فيها الـ ٢ !.. أرخص من التراحيل !!

لكن ابى فوق وجاهته كان دءوبا وفنانا . كان خطاطا وكان يرسم بالزيت ، ويكسب رزقه من هوايته شركة مع عم حسنى « ابو نجاة وسماد » .. كنا مبسوطين ،

أتذكر ان أبى كان يشترى لى كل عيد فستانين !

* ضـــــاع النور من عينى أبى .. ســـقطت « الكاتاراكتا » سحابة تعمى عينيه . كنت احمل له الفداء كل يوم فى « عمود » وازوره فى مســــتشفى قلاوون .. استرد بصيصا من نور عينيه فعاد الى عمله فى المحكمة ، لكنه توقف عن الرســـم وكتابة اليفط . انقطع الرزق الاضافى . وعادت العائلة الى مستوى التراحيل !

كبار العائلة بناتها .. اختى نوال ١٦ سنة ، وخيرية ١٤ سنة ، وأنا بنت ١٢ سنة ، لكن تشوفنى ـ لنضجى المبكر ـ تقول اختهم الكبيرة ! قررنا ان نشتغل ونضع اكتافنا الصغيرة تحت حمل العائلة !.. نوال اشتغلت خياطة فى « صيدناوى » وانا وخيرية احترنا نعمل ايه .. نعمل ايه ؟.. رحنا للريجسير « قلادمير » بمرايل المدرسة نشتغل كومبارس !

حسب التسعيرة كانت البنت ام فستان عادى ايجاره من عند الريجسير ٢٥ قرشا ، تأخذ جنيها فى اليوم .. البنت ام فســتان سواريه ايجاره ٣٠ قرشا ، تأخذ ١٥٠ قرشا .. انا وخيرية كنا نؤجر السواريه ، بشلن زيادة نضمن ٤٥ قرشا مكسب ! كنت احلم بفاتن واتمنى ان اكون فى يوم مثلها ، وارى افلام تحية كاريوكا فأقول لنفسى : « آه لو تبقى أختى الكبيرة » ! أول فيلم فى حياتى سنة ٥٠ وقفت مع شادية كأنى واحدة صاحبتها هى تغنى وأنا اتمايل مع صوتها براسى .. آخر انسجام اسم الفيلم « بشرة خير » وكان بشرة خير .. بالفعل !

***

* سنتين وانا كومبارس صامتة ، سنة ٥٢ نطقت !! نطيت من على سلم الترامواى انا وفاتن حمامة فى فيلم

« أنابنت ناس » وقلت « اللى يكسب » ، جملة مفيش غيرها ، وسبت فاتن تكمل دور البطولة ! يومها الصبح رحت الاستوديو بفستان اختى نوال الجديد ، حسن الامام مخرج الفيلم فحص بنظراته بنـــات الكومبارس واحدة واحدة ، وقفت عينـــــــــاه عندى وقال : « تنفع دى .. هاتوا المقص ! » وبالمقص ودون اكتراث راح يقص الفســـتان الجديد هرابيد .. موش بياعة يانصيب ؟! بكيت بدموع صامتة على فستان اختى لكن المخرج طمأننى : « ولا يهمك اجيبه لك واحد غيره » .. ومن يومها وفستان اختى فى ذمة حســـن الامام !

* طالت الجملة التى امثلها فى فيلم « حبيب الروح » وقفت امام ليلى مراد وقلت لها : « تشربى شمبانيــا ياليلى هانم ؟ » أنور وجدى بعد « الشوت » قال لى « اسمعى يا شاطرة ، خدى الـ ١٥٠ قرش دول ، والمرة الجاية حاعملك بطلة » ! ومات أنور وجدى قبـل أن يحقق لى حلمى ! والموت ايضـــا هو الذى اخذ منى أول عقد بطولة كنت قد تعاقدت عليــه مع عزيزة أمير لامثل فيلما باسم « همسات الرمال » مقابل أول ١٥٠ جنيها فى حياتى ، وماتت عزيزة قبل تنفيذ العقد !

* بعد ٢٠ فيلما كومبارس وبطولة ثانية فى ٤ سنين مثلت أول دور بطولة سنة ٥٦ ، دور العمياء فى فيلم « اغلى من عينية » احتـــكرتنى « أفلام الهلال » ٥ سنوات بمرتب شهرى ٢٥ جنيها ، يرتفع الى ٥٠ جنيها بعد ســـنتين من بدء تنفيذ العقد . رغم ضآلة المبلغ احسست بأول نسمة استقرار فى حياتى ، كنت اعطى المبلغ كاملا لابى ليرفع الاسرة من مستوى التراحيل ، وآخـــذ لنفسى جنيها كل أسبوع أتشـــبرق به وأكوى شعرى !

* عوضت نقص تعليمى : درست اللغة الفرنسية ٤ سنوات فى مدرسة « فكس » .. ودروس خصوصية فى اللغة الانجليزية لمدة سنتين .. أصبحت أجيد الفرنسية واعرف الانجليزية ! تتلمذت فى الالقاء على يد أبى الفنى عبد الوارث عسر ، قرأت أشعار مجنون ليلى . تعلمت كيف أقرأ بفهم مسموع ! قرأت وحدى اعمال توفيق الحكيم ، ونجيب محفوظ ، ويحيى حقى، واحسان عبد القدوس .. عندما مثلت بطولة « خان

الخليلى » و « قنديل أم هاشم » فيما بعد أحسست بالفة نحو دورى ، من كثرة ما قرأت الروايتين من قبل بتأمل فنى !

* فشلت فى عدد من الافلام .. أو بالادق ، فشلت أدوارى فيها ! أدوار مرسومة فى السيناريو بصورة مقنعة ، لكن التنفيذ أساء الى واليها ! لم أعثر على نفسى الا سنة ٥٦ فى قصة احسان عبد القدوس الثانية من فيلم « البنات والصيف » ، دور فتحية الشغالة فى بيت رجل مسن يطاردها باغرائه .. دور عقدة ؛ لكنى وفقت فى حل عقدته ! كتب عنى احسان : «لقد مثلت سميرة احمد الدور بصورة أفضل مما كتبته» ! وقال سعد الدين توفيق فى مجلة « المصور » : « أما عن أداء سميرة فلا تكفى صفحات المصور » ! وقالت عنى فاتن فى مجلة « الاذاعة » : « أقنعتنى بكل حركة وكل ايماءة منها .. لدرجة انى صدقت فعلا انها مظلومة » !

* بلاش نتكلم عن أيامى مع زربانللى ، تسمح لى؟ ! وعلى كل ، فقد كانت علاقة شرعية لها ظروفها :

* التقيت بزوجى السابق السيناريست وجيه نجيب سنة ٦٠ . عز الدين ذو الفقار كلمنى عن بطولة فيلم

« رجل فى حياتى » . قرأت السيناريو مع وجيه . أعجبنى . اتفقنا . لظروف التوزيع تأخر التنفيذ . جاءنى وجيه فى يوم وقال لى : تيجى ننتج الفيلم سوا ومعانا يوسف شاهين ؟ تحمست للفكرة . أثناء التصوير فى اسكندرية أحسست ان كل لقطة تقربني أكثر من وجيه . قلب أبيض لبن . ونفس صافية مراية . وعقل منظم الكترونى! وفى يوم راكبين العربية رايحين « أبو قير » قال لى ببساطة كاريكاتيرية « تيجى نتجوز ؟ » .. قلت : « نتجوز» .. وكم كانت سعادتى عندما تحققت النكتة !

... لكن الزمن غيره ، بعد عشرة السنين .. افترقنا بالطلاق ! الاسباب بالتحديد ؟.. أرجوك تعفينى !

* فى دائرة الاعتزاز عندى دورى فى فيلم «الخرساء» سنة ٦١ . أول عرض فى سينما « ديانا » وأنا باعبر لوكيل النيابة بالاشارة ازاى قتلت محمد علوان أبو طفلى ، الناس صفقت .. وعبد الوهاب وعبد الحليم كانوا فى اللوج جنبى قالوا فى نفس واحد : برافو ياسميرة .. ده بجد اعجاز !

مثلت بطولة ٥٠ فيلما من سنة ٥٦ حتى الآن . دورى فى « قنديل أم هاشم » و «خان الخليلى» قفزا باسمى الفنى سنين لقدام !

وصل أجرى الى ٣٠٠٠ جنيه فى الفيلم ، لكنى مستعدة أن أتنازل عن نصف أجرى لامثل فى فيلم اعتنق قصته وأومن بدورى فيه !

* سمعتنى أغنى ؟ ! طيب اسمع :

دوقنى حنانك دوقنى
وفى بحر نعيمك .. غرقنى

مشـــتاقة لموجة حنيـــــه
تخطفنى وتطـــير كده بيـــه
وتخلى الحب معــــــديه
وان قلت ف عرضـك الحقنى
كدابة ... اوعى تصــدقنى !

الـكلام لصلاح فايز . ولحن محمد ضياء الدين ، والاسطوانة طبعتها صوت القـاهرة . كل من سمعنى قال : دى داليـــدا المصرية ! سمعت أيضا ان أغلب سائقى التاكسى فى بيروت يديرون الاسطوانة أثناء المشوار ليسرقوا وقت الزبون .. وفلوسه !

***

تكلمت عن نفسك كثير يا « سـمرة » .. آخـذ فرصة أتـكلم ! ..

* بيت الفنانة ـ واقع شائع ـ ليس بيتها ! طعامها ليس صنعة يديها ! نظافة البيت شغل خدم ومكن ! أولادها تربية غيرها ، تصنعهم الدادة ! نناقش القضية على مقاسك : كم شغالة عندك ؟

ـ اثنان .. سعيد للسفرة والصالون والانتريه . وايلين لغرف النوم . وأنا للمطبخ وتربية جلجلة .

* هل تستطيعين وحدك اعداد « عزومة » لـ ٥ أشخاص ؟

ـ لـ٢٠ ! انا مشهورة فى الوسط الفنى بطبق محشى ورق العنب . وصينية البطاطس بالفخـذة ! ساعات أفنن وابتكر .. عملت روستو بطريقة جديدة .. لحمة بتللو أو ضانى ، ٥ أو ٦ بصلات مقشرة وصحيحة . ملح وفلفل وعصير ليمونة . فى طاجن مغطى فى فرن ناره هادية .. أكلة خفيفة على المعدة جدا !

* هل تمسحين الشقة .. تدهنين الباركيه !

ـ كنت أعملها زمان من باب الرياضــة . دلوقت خسيت ٧ كيلو برجيم عنيف . ضعفت . لما انحنى على الارض أدوخ واقع من طولى !
* تفصلين بنفسك فساتين للبيت ولخروج النهار ؟
ـ الحقيقة ليس عندى أى فكرة عن فن التفصيل!
* تفهمين فى تربية الاطفال ؟
ـ جليلة تفهمنى .. أتعلم منها ، واتعلم فيها !
* طيب ما سبب الزغطة التى تصيب الطفل الرضيع أحيانا بعد الرضاعة ؟
ـ ماعرفش الحقيقة .. تعرف انت ؟ !
* أيوه . الدكتور مصطفى الديوانى فى كتابه «حياة الطفل» ـ صفحة ٨٩ ـ يقول ان الزغطـة تعنى.. أولا : ان المعدة مملوءة بأكثر مما يلزم .. ثانيا : ان الطفل سليم يهضم غذاءه جيـدا .. ويندر أن يتقيـأ الطفل بعد الرضاعة متى بدأت الزغطة !
ـ أيوه صحيح.. أتارى ماما زمان كانت تهنن أطفالها وتقول : يا زغطة كبريه .. يا زغطة سمنيه !
* افتراض : هل تسمحين لبنتك بالسهر مع ولد صاحبها ؟
ـ لا !.. كله الا كده !
* كيف تواجهين أول كذبة على لسان طفلتك ؟
ـ أصدقها .. علشان المرة الجاية تنكسف تكذب !
* زوجك ـ افترضنا ـ تأخر خارج البيت .. هل تسهرين فى انتظاره ؟
ـ على قد ما أكون باحبه .. وعلى قد ما اقدر أقاوم النوم !
* من اجوبتك .. تعطين نفسك كم درجة من ١٠ كست بيت ؟
ـ ٨ من ١٠ .. بذمتك موش استاهل ؟ !

شويكار :
الأصل تركى.. وخفة الدم مصرية!

بطة بكينى بيضاء . ذكية . شقية . كلها حيوية . تتحرك فى البيت عادة بخطوة سريعة كأنها تجرى وراء أوتوبيس ماشى لتلحقه !.. ودوائر نصفها الاعلى بارزة للأمام فى « بوز » رياضى صحى يغرى بالحسد عيون العذارى ، وبالاشتهاء عيون أصحاب الجرأة غير العفيفة!

فاتنــــة بجد ، وبكل مقاييس الجمال ، وكوميديانة فنانة والاسم الاول : شويكار . يليه «طوب صقال ». « طوب » و « صقال » مع كل هذا الجمال ؟ ! .. شىء يحتاج لتفسير يقنع !

قالت لى « شوشو » :

* أفسر لك حكاية « طوب صقال » ، الذيل الذى يتدلى فى آخر اسمى !.. طوب صقال رتبة عسكرية عثمانلية كان يحملها جدى « ابراهيم » . أصــله كان ضابطا فى الجيش العثمانلى . والرتب أيامها يحــددها شكل اللحية . صاحب اللحية المربعة هو الخديو شخصيا وجدى ابراهيم كانت لحيته مدببة ، لحية من يحمــل رتبة « طوب صقال » ! ولشجاعة جــدى وفتوحاته ، أقطعه الخديو ــ لا أذكر اسمه ! ــ اقطاعية كبيرة فى الشرقية . وتزوج جدى من مصرية .. وتناســــــــل واستوطن !

وتقرأ اسمى فى شجرة العائلة . شويــكار ابراهيــم احمد شكرى ابراهيم « طوب صقال » .. يعنى جدى ــ بصحيح .. موش كلام مسرح! ــ كان «كائد تابية»!

* أصل جمالى ؟ ! الاصل زى ما قلت لك تركى.. لـكن خفة الدم مصرية .. التراكوة الصرف دمهم تقيل جدا ! وجمالى زى مابتقولانت «اموى» .. يعنى طالعه لأمى !.. أمى ما زالت جميلة جمال !.. أسمع منها عنها انها كانت تدخل الحفلات الراقيـة فتـدير رقاب الرجال !

أبى مزارع يزرع أرضه التى هبطت عليه من اقطاعية جده . كانت حوالى ٢٠٠ فدان . نابنى منها ١٢ فدانا وكبشة قراريط .. فقد قسم أبى التركة علينـــا ــ ولدين ، ٥ بنات ــ فى حياته .. رضا ! من مواليـد بيت جدى لأمى فى الجيزة ، ٤ نوفمبر ٣٨ . صدقنى! شقية ، حتى وأنا فى اللفة !.. الراديو يكون مفتوحا على موسيقى راقصة ــ تحكى لى أمى ــ أرقص.. أظل أهز ساقى بنشاط وايقاع الى أن تسقط اللفة عنى.. وأتعرى ! أم صغيرة تملأ لى غرفة خاصة باللعب والدمى الجميلة المتحركة ، واب شيخ لـكنه يحبنى بعبادة .. ماذا يشقينى ؟ !

* فى ليلة أحسست لاول مرة ان الدنيا دنيا !.. مندفعة من صغرى . اقع على الارض كثيرا فأبكى . وتجىء أمى فتضرب الارض « أآه » فأمســح دموعى وينتهى الموقف !.. ليلتها لقيت أمى فى ركن منزو من غرفة النوم تبـكى بحرقـة . فزعت . ضربت الارض تحتها « أآه » ، لـكنها استمرت تنهنه وعيونها تسح دمعا ! فجأة انتصبت واقفة بعصبية . جمعت ملابسها الغالية فى حقيبتين بغير نظام . وانسلتت خارجة تتعثر فى حقيبتيها وحبات دموعها ! صرخت من كل صدرى : « رايحه فين يا ماما .. خدينى معاكى » .. لـكنها تركتنى واختفت !

وجاء ابى .. قفزت الى حضنه أستنجد به ، لـكنه أعادنى الي الارض بقبلة وجملة غامضة بتارة : « ربنا يا بنتى عايز كده » ! لورى انجليزى مفلوت عيـاره دهس اخى أحمد قبل شهور ، وما زال للحظتها يمشى ببطء ويتعكز . سندته أنا وأختى شريفة الى غرفتنا ، وجلسنا متكورين على بعضنا نتألم . أسرح بعينى الى ضوء لمبة سهارى فى الطرقة المؤدية لمدخل الشقة ، يهيأ لى أن شبح أمى داخل يهفهف عبر حزم الضـــــوء الضعيفة .. لـكن العبث ان يتحقق خيالى ! وبكيت حتى شربت دموعى المنهمرة .. أحسست ليلتها أن فى الدنيا آلاما كثيرة غير ألم الوقوع على الارض!.. عمرى ٦ سنين .. لـكنى أحسست ، فى ليلة ، أنى شخت سنين !

* فى الصباح صممنا كلنا ان نشوف أمنا . أخذنا « عم نصر » الطباخ فى تاكسى الى بيت جدنا فى الجيزة لقيتها هناك .. ملاك . الشعر طويل مبدور مظلم ظلمة ليلة كئيبة . والعيون الخضر خنق البكاء اخضرارهما بكماشة من دم ! أمى التعيسة ! تليفون من أبى : «خلى الاولاد عندك .. كده أسبوعين تلاتة » !

وعندما عدت برغمى الى بيت أبى وجدت فيه بنتا جميلة . وردة فى الـ ١٧ . وسحبتنى عمتى دولت الى المطبخ وأغلقت الباب وهى تقول : « اسمعى بأة .. دى دلوقت مرات باباك .. يعنى لازم تعامليها زى ماتكون أمك تمام .. انت فاهمة ؟ ! » .. ولم أفهم لحظتها لماذا يتبنى أبى بنتا جديدة ! ؟

* دخلت مدرسة .. « نوتر دام دى لاديفيرانت » بمصر الجديدة . داخليـــة أنا واختى « شريفة » أمى ممنوعة .. من الاتصال بنا ، بأوامر أبى . وهو لايزورنا

الا اذا استدعته « الميردى فيلنيفر » ناظرة المدرسة ليعاقبني على شقاوتي بقسوة .. ثم يعدل هندامه وينصرف !

عطشانة الحنان .. كان من الممكن أن تعقدني ظروفي عقدا رهيبة منحرفة .. لكني كنت عابثة شقية وبريئة .. وكانت سلامتي في شقاوتي وانفجاري ! أسمع هتاف أي اضراب عابر فأقفز من على السور لأمشي مع المضربين وأردد الهتاف ! أفتح حنفيات الحريقة في أول الليل لتصبح المدرسة غرقانة للركب ، ونستمتع بيوم بطالة ! أحاول الانتحار بالقفز من شباك غرفتي في الدور الخامس بالمدرسة ، لولا ان تلحقني البنات و « السور » المشرفة ! في أعماقي رغبة محرقة في أن احتج ، لكني لا أعرف كيف أصوغ احتجاجي!

بعكس هذا كله كنت في الدراسة .. ذاكرتي كاميرا تحتفظ بكل شيء يدور أثناء الحصة وللسبب نفسه تجدني احفظ أدواري الآن بسرعة ، بس امسك الخشب! وكاميرتي تكفيني . تغنيني عن المذاكرة . وتعطيني ترتيب الاولى على الفصل دائما ! أذكر مرة واحدة وأنا في خامسة ابتدائي ، بنت اسمها « ايزابيل » طلعت الاولى على بفرق نصف نمرة .. مت بغيظي ! فكرت كيف أنتقم منها ؟ حفرت لها حفرة بجوار سور المدرسة وسحبتها الى هناك .. قلت أزرعها يمكن تطرح ! لكنها بكت . صعبت علي . حضنتها وقبلتها بصفاء وحنان ، وهمست في أذنها : « طيب تحرمي تطلعي الاولى عليه » ؟ !

أخذت السير تيفيكا ــ الابتدائية ــ سنة ٤٩ .

* في نفس المدرسة ، في القسم الثانوي . انشغلت بجزء من حيويتي في حفلات المدرسة السنوية . بروفات .

بطولات لروايات كثيرة .. « ذات الشريط الازرق » لفيكتور هوجو . قصة سيدنا يوسف وامرأة العزيز ، بتلخيص من التاريخ . رقص جماعي ايقاعي . القاء لقطع محفوظات . اذكر منها قطعة شعرية اسمها « قلب أم » كنت القيها بدموعي :

أغرى امرؤ يوما غــــلاما جاهلا
بنقوده .. حتى ينـــال به الوطر
قال : ائتني بفؤاد أمك يا فتى
ولك الـــدراهم والجواهر والدرر
فمضى فأغرز خنجرا فى صدرها
والقلب أخرجه ، وعاد على الاثر
لـكنه من فرط سرعته هوى ..
فتدحرج القلب المعفر ، اذ عثر ..
ناداه قلب الام وهو معفـــــر :
«ولدى حبيبى .. هل أصابك من اثر؟ !»

... شوف قد ايه قلب الأم ؟ !

* أخذت « البريفيه » ــ التوجيهى ــ سنة ٥٣ ، عمرى ١٥ سنة . رأى العائلة ان البنت كبرت ولازم يجوزوها ويفرحوا فيها ! حسن نافع ، شاب ٢١ سنة محاسب قانونى . تقدم لى ، أتفق مع ابى على كل شيء ، وجاء مع أمه يزورنا . ما صدقت وافقت !.. أقله علشان أقدر أشوف أمى بحرية . واخواتى يبقى لهم بيت فيه الحنان !

لم أدخل سينما فى حياتى الا مع زوجى !.. فاكرة السينما « ريفولى » .. والفيلم « المائدة المستديرة » لميل فيرر وآفا جاردنر! رزقنى ربنا بابنتى « منه لله» سنة٥٧ . مات أبوها بعد شهور من مولدها .. حبيبتى المسكينة. افقت من حلم زواجى الذى مركطيف الخيال

.. ارملة فى الـ ١٧ .. وأم لطفلة ترضعها من تجث ملابس سوداء غير مكسمة !

زوجي بلا معاش ، فقد راح وهو لم يبدأ .. ابى غطاء لايكفى.. لابد أن أعمـــل لاربى ابنتى احسن مما تربيت أنا !.. أيضا لـكى انسى ! قدمت طلبـا لشركة شل . امتحنونى . قبلونى موظفـــة فى قسم العلاقات العامة بمرتب ٢٠ جنيهـا !.. وكادت ظروفى تسوقنى لمصير آخر تماما !

* الفنان محمود السباع ، نسيبنا وقريبنا. يزورنا؛ آخذ رايه فى شغلتى الجديدة .. يعترض .. ويعرض على أن أعمل معه فى فرقة أنصار التمثيل بمرتب ١٠ جنيهات فى الاسبوع . وافق أبى بتحفظ : « بس اوعى يابنتى تعملى حاجة .. وتندمى عليها » ! شهور وأنا اتمرن على دورى فى رواية «حبر على ورق» مع السباع ومحمد توفيق . وليلة الافتتاح كانت ليلتى. أحسست انى أولد من جديد . وجهى وأخبارى عرفت طريقها الى أعمدة الصحف . طلبنى جمال الليثى لأمثل البطولة الثانية مع عمر الشريف ونادية لطفى فى فيـلم « حبى الوحيـد » ، بأجر ٢٥٠ جنيها . مثلت بطولة فيلمى السادس « عروس النيل » فى نفس السنة ، ووصـل أجرى لـ ٦٠٠ جنيه ! رصيدى من افلام السينما حتى الآن ٣٢ فيلما . قفز أجرى الآن الى ٢٥٠٠ جنيه .. أظن منتهى التواضع !

لى فى المسرح الـكوميدى : « السكرتير الفنى » . و « أنا وهو وهى » التى صنعت فيما أعتقد اسمى الفنى ! و « أنا فين وانتى فين » و « حالة حب ».. وعلى مسرح الفنانين المتحدين : « أنا وهو وسموه » و « حواء الساعة ١٢ » .. و « سيـدتى الجميلة »

أضخم عمل مسرحى قدمته الفرقة ..

* شتاء ٦٣.. أول مرة أشوف فؤاد. معه فى مسرحية « السكرتير الفنى » نستعد لتقديمها على مسرح الهوسابير . مهموم . عصبى جدا . مبهدل فى لبسه باهمال من يعطى للدنيا قفاه !.. لكنه على المسرح أستاذ .. حتة أستاذ ! ذكى . قوى الشخصية . حاد الذاكرة . يبهرنى اداؤه فيخرس لسانى.. وأفيق على بوزه ملويا فى اتجاهى حتى لايراه الجمهور وهو يصرخ هامسا : « اتكلمى .. انطقى » ! وأقول له رايى فى فنه بين الكواليس فلا يصدق مديحى .. وتضيع منه عيناه فى سقف المسرح وهو يغمغم : «ميرسى ياشوشو .. انتى بتدينى ثقة فى نفسى .. أقرب الناس لى — يقصد زوجته الاولى — الله يرحمها — عاوزين يهدوا المسرح فوق نافوخى ، علشان أفشل وانحط زى ما انا موظف صغير فى حسابات الجامعة » !

تقاربنا . تفاهمنا . تكلمنا فى التليفون بالساعة ! كان كل منا متألما ، فجمعنا الالم ! وفى ليلة على مسرح الأوبرا نقدم معا « أنا وهو وهى » .. أنا وهو ممدان على الأرض نداعب الهواء بهزة الساق .. لحظة صمت الا من الموسيقى التصويرية .. فجأة صرخ فؤاد هامسا دون أن يلتفت الى : « ما هو أنا ما اقدرش أعيش من غيرك ياحبيبتى .. احنا لازم نتجوز » !.. وجاءه ردى مذهولا : « ياخبر يا فؤاد » .. لكنى فرحت فى أعماقى وصدقت الخبر !.. فلم يكن هناك طريق آخر ليتخلص كل منا من آلامه ! تزوجنا فى ٢٨ نوفمبر ٦٤..

... وزواجنا نصيب . وطلاقنا أيضا . تفاصيل ؟ مفيش داعى !

✻ أنا كوميديانة ، والـكوميديا هى الفن الاصعب لا هواية ولا غيره .. الفن بالنسبة لى عملية اخلاص يعنى ممكن اشتغل وانجح فى اى ميدان آخر، ما دمت مخلصـــة ! غنيت فى « أنا وهو وسموه » وفى « خوا الساعة ١٢ » و « سيدتى الجميلة » .. وغيرها .. سمعتنى ؟

فتحت لى بسؤالك باب كبير للتفكير.. أنا فعلا لاز. اقدر موقفى من تانى واوازن بين عملى بالمسرح وعملى فى السينما .. وبينى وبينك أنا احب السينما .. فن أسهل ، وفلوس اكتر ، وتسب أقل.. والمسرح.. جاتا البلا ! ! !

✻✻✻

قلت لبطتى البكينى البيضاء :

✻ عاوز أعرفك من ودانك !.. كلمينى عن سمعك. ودانك .. حجمها مناسب على جانبى راسك ؟ ! .

ـ أيوه صغيرين : « تزيح شعرها عن أذنها ببساط ودهشة » .. حتى شوف ؟ !

✻ تلبسين فيهما « حلق » طراز ايه عادة ؟

ـ النوع الطويل المدلدل.. دهب أو فالصو موش مهم !

✻ ماذا سمعت بأذنيك : آخر نكتة مثلا ؟

ـ قبل ما تدخل باقول لأمى : « عبد التواب اتأخ يا ماما .. عصير حياتى » .. ردت أمى بمنتهى الجدية « معلهش ياحبيبتى .. تحبى أعصر لك حاجة تانية» ؟

✻ وأجمل حكمة دخلت اذنيك ؟

ـ دع الامور تجرى فى أعنتها !

✻ وأعذب صوت تنخلع له أذناك ! ؟

ـ صوت أم كلثوم ، ودعاء الكروان.. « ومر كروا

لحظتها صدفة فى سماء الزمالك يترنم بدعائه الشهير!»
* والعطر الذى تضعينه خلف أذنيك ؟ !
ـ مدام روشا .. القزازة الصغيرة منه ب. ٣٦٠ قرشا !
* « المراة ودنية » .. كذب والا صدق ؟ !
ـ الرجالة ودنيين أكتر .. الواحد منهم يزوم بلذة وهو يسمع : « هيه .. ياسلام .. بأه كده .. ياخبر مهبب ! »
* هل تنظفين أذنيك عادة بعد الحمام ؟
ـ طبعا ..
* طيب .. وما رايك فى القاعدة الشهيرة فى طب الاذن التى تقول : « لا تضع فى أذنيك شيئا أصغر من كوعك ! » .. يعنى ما تلعبش فيهم أبدا بعود كبريت أو ورقة مبرومة مثلا .. مضر جدا ! ؟
ـ ما أنا باعمل بالقاعدة .. باستعمل الفوطة فقط !
* ما النغمة التى تسمعينها فتسيب لها مفاصل وسطك ؟ !
ـ إلفالس .. نغمة ملائكية ، أرقصها كأنى طايرة بجناحين !
* هل مفتاح شخصيتك كلمة تتقال فى ودنك ؟ !
ـ مفيش كلام !
* ايه هى ؟
ـ الكلمة الحلوة .. قلبى وعقلى مفتاحهما الكلمة للدوق !
* وهل أزمتك الاخيرة مع فؤاد سببها كلمة قليلة الدوق ؟ !
ـ وحياتك عندى : لحد هنا .. واسمح لى !

سميحة أيوب:
لكي يهدأ الأغبياء!

همهمة . غمغمة . حركات غريبة . تحركات ملسوعة في كواليس المسرح القومي . والممثلون وجلون . المنطق معهم والانسجام وهم يخبون في أرديتهم الاغريقيـــة الفضفاضة . لــكن المنطق سرعان مايسقط مع الانسجام عندما يطفيء أحدهم عصبيته بسيجارة بلمونت يشعلها ويفني في أنفاسها .. حتى الاغريق أهل مدينـــــة « أرجوس » كانوا يدخنون البلمونت ؟ !

« سارتر وصل ياجماعة .. استعدوا » .. يهرول المخرج ســـعد أردش بنشر الخبر في الـكواليس . المدخنون من أهل ارجوس يطفئون أعقـــاب البلمونت ويسرعون كل في اتجاه . وسميحة أيوب ـ اليكترا . الندم . سارتر ـ واقفة آمنة . لـكنه أمان مصطنع ! منذ أرسل سارتر قبل وصوله القاهرة بشهرين يطلب أن يرى « ندمه » على المسرح ، وهى تصطنع هـــذا الامان ! مسيو كلودستيه رئيس تحرير «الاوبزيرفاتير» الباريسية قال لها بمواجهة : « لابد أن يراك ســارتر بنفسه . لـكنه فنان صريح فاحذريه . انه اذا لم يعجبه اداؤك سوف يفجر رأيه في وجهك دون أي مجاملة ! »

.. وفي الاسبوع الاخير قبل العرض كانت سميحة قد فلسفت الموقف لنفسها بنفسها : « كل جهـدى وفنى اقدمه . واعجابه نصر فني . أما عدم اعجابه فأعذاره كثيرة . ربما كان متعبا من زحمة برنامج زيارته . ربما كان لحظتها عكر المزاج . العيب فيه اذن ، وليس في

فنى ! » .. وارتاحت سميحة لهذا الافتراض. ارتاحت اكثر عندما ضمها زوجها سعد الدين وهبة الى صدره قبل أن يغادرا الشقة ـ ١٥ ش أبو الفداء الزمالك . ت ٨١٨٥٨٣ ـ وهمس بتمن : « باذن الله تبيضى وشى الفن الليلة دى » !

لكن خبر وصول سارتر الى المسرح هز كل شيء . حتى دقات قلبها احتـــدت عليها وارتفع صوتها ، والممثلون وافراد الكورس الذين سبقوها الى الظهور على المسرح يؤدون بتوتر وعصبية . يادى المصيبة ! وسحبت كرسيا وانهارت عليه لتستريح الدقائق القليلة الباقية. ثم انطلقت فى موعدها بالضبط الى عرض المسرح. اليكترا فى ثوبها الابيض ، وفى قمة البهجة ، وأهل ارجوس كلهم يعصرهم الندم والحداد . ويعترضـها ايجست كمسمار شائك : « ما معنى هذا الثوب الابيض ؟ ! » وترد بنت أجا ممنون : « لبست أفخر ثيابى . أليس هذا يوم عيد ؟ ! الحداد ؟ ! لست أخاف موتاى ، ولا شأن لى بموتاكم » ! وترقص اليكترا . وتشـيع البهجة فى نفوس نساء ارجوس ، فيخلعن اقنعة الحزن والندم ويرقصن معها. . وينقر سارتر بأصابع يده اليمنى على مسند مقعده طربا لهذا الاستهلال الموفق !

وينتهى الفصل . ويصعد سارتر ليشـد على يد الجميع . يخص سميحة بعبارته الفرنسية .. « اليكترا بتاعتى. . بنت اجاممنون الحقيقية. . كم كنت رائعة. . !» وتلاحقها مدام سيمون دى بوفوار .. « لم اكن اتصور أن أجد هنا كل هذا الفن » !.. ووسط هذا العطر ، يقول لويس عوض للمخرج سعد أدرش بصوت مسموع: يا أخى ماكنتش قادر تخليهم يقولوا أوريست ، بدلا من اوريست ؟ ! » دكتور لويس يقصد أن يكون نطق

أسماء أبطال الرواية فرنسيا صحيحا . ملاحظة شكلية بدت فى غير محلها وسط كل هذا الثناء على المضمون !

***

قولى « ياسميحة اليكترا » !..

* سميحة عثمان أحمد على أيوب . أسماء شهرة فنية : رابعة العدوية. سمارة. فاكر سمارة ؟! زوجى سعد قدام الناس يقول لى : ياسميحة . وبيننا وبين بعض يقول لى : ياروحى !

٨ مارس سنة ٣٣. لا.. اذا كان علشان خاطرك نخليها ٣٤ ! سوق السلاح . بيت وقف قديم زى بيت جحا تدخله ماتعرفش تطلع منه ، بيت العـائلة ! أبى كان ناظر وقف الامير على كاشف . حلوا الوقف سنة ٥٣ فنابه ١٩ الف جنيه. رضا! لكنه كان يتصور ان الحجج تعطيه ملكية حى السيدة زينب بأكمله . صرف الـ ١٩ الف جنيه على القضايا ليفوز بحى السـيدة . فخسر كل شيء !

٣ بنات . الوسطى أنا . متزوجتان وليست لهما بالفن صلة .

* ٤ سنين. جاردان مدرسة ؛ زى ماتقول مدرسة حضانة . طفل زميلى ، لكنى أحبه ! مصروفى مليمان أشـترى كل يوم بمليم طرشى وبمليم تلج أقرقشة . الطفل حبيبى يحب البونبونى. أحيانا يعطينى واحدة. وأجامله فأعطيه قرن شطة مخلل .. يأكله .يتألم من الحرقان حتى البكاء . يصعب على. أهوى له بكراستى على فمه الى ان ينسحب الألم !

فى يوم ضبطته يلعب مع طفلة أخرى . لازمها اغلب النهـار . جاء بعدها يكلمنى. فلم أرد عليه . سقط من عينى .. الخائن الصغير !

* تعليمي : مدرسة سان جوزيف . ٦ سنوات ، لكنني لم أدخل امتحان السيرتيفيكا . شهور قليلة في مدرسة النيل الثانوية . سنتان في مدرسة التجارة المتوسطة . تخبط ، فأبي غارق في قضايا الوقف ، وامي ست دقة قديمة تعليم البنت في رأيها.. زي عدمه ! زينب بنت زميلتي في التجارة . قدمت في معهد التمثيل ورايحه تمتحن.. « تيجي معايا ياسميحه . دانتي حتشوفي كل ممثلين البلد ؟! » .. رحت معاها بمريلة المدرسة الزرقاء ، وشعري المتهدل كخيوط المكرونة الاسباجتي !.. زكي طليمات : « تحبي تمثلي ايه ؟ » .. افتكروني جايه امتحن ! سقت فيها .. « امثل حاجه ليوسف وهبي » .. ضحك يوسف وهبي في قعدته وسط هيئة الممتحنين ! قلت لهم حتة من سكتش ديني بالفرنسية تعلمته من أيام مدرسة سان جوزيف . قبلوني مستمعة . قبلوا في دفعتي فاتن حمامة ، لكنها لم تستمر في الدراسة أكثر من سنة واحدة ! بعد شهور من المثابرة قيدوني طالبة منتظمة بالمعهد ، واعطوني ٦ جنيهات في الشهر مثل بقية الطالبات . فرحت بالمبلغ ، كأنه ٦ ملايين !

... أخذت الدبلوم سنة ٥٣ والتقدير : جيد جدا .

* ثقافتي : قرأت في حرفية المسرح . نصوص مسرحيات . أدب معاصر ، مصري وعالمي . في مكتبة البيت ٢٠٠٠ كتاب تقريبا . نصفها قرأته ، والنصف الآخر نفسي أقراه ! لا . لا اشتري . سعد هو الذي يمون المكتبة أولا بأول . أقرا الصحف الثلاث ، لكنني أثق أكثر بأخبار « الاهرام » . المجلات الاسبوعية عدد فاضي ، وعدد ملىء بالمواد القوية . لماذا يتذبذب خطها البياني هكذا ؟ يبدو انهم يعملون في المجلات الاسبوعية

من غير خطة !.. « بصوتى : ملاحظتـــك صحيحة ياسميحة ! »

* معدنيالفنيموجود أصلا. انما كانعليه تراب .. تراب الحساب الجارى . ومسـك الدفاتر . وطرق التجارة التى درستها فى مدرسة التجارة ! فى معهـد التمثيل نفخوا التراب ، بان المعدن !

* ١٠٠ مسرحية تقريبا . أولها دور « ماريان » فى « البخيل » أيام المعهد . واعزها « الانسان الطيب » لبريخت . أعتبـر دورى ، دور « ليزا ماكاى » فى «المومس الفاضلة» ، أهم نقطة تحول فى حياتى المسرحية.. عملته سنة ٥٨ . أول دور معقد «كاراكتير» أخرج به على روتين أدوارى النـاعمة السـابقة . بين الـ ١٠٠ مسرحيـة التى اشتركت فيها ما بين ٢٠ و ٣٠ فقط مصرية عصرية ، والباقى مسرحيـــات مترجمة اغلبها تاريخى ، وبالذات من أصل اغريقى ! مثلت كذلك أغلب مسرحيات توفيق الحكيم ، وسعد وهبة . لا ، فيه فرق .. زمان كنت قالب . الآن عجينة طيعة ومرنة واكثر نضجا ! احب شيل الحديد فى المسرح .. أحب اشيل الادوار الخصبـة الصعبة ! أول أجر لى بعـد الاحتراف ٧ جنيهات من المسرح الحديث ، الآن لا أعرف مرتبى بالضبط .. كل اشهر أقبض رقم شكل !

* كويسة ورخيصة وبنت مسرح ، لكن بختى مع السينما نعسان ! ٢٠ فيلما . أولها دور صغير فى فيلم « المتشردة » وآخرها دور البطولة فى «جفت الامطار». بدأ أجرى بـ ٣٠ جنيها . الآن الف جنيه .

* الاذاعة معهد لتربية أصوات الممثلين . صـوتى يعرف طريقه الىميكروفونالاذاعة فى «عذراء الربيع» ؛ برنامجغنائيسنة ٤٩. حتى الآن أكثر من ٥٠٠ تمثيلية

وبرنامج . أكثرها قيمة : رابعة العدوية ؛ وأكثرها شهرة : « سمارة » ! ١٠ جنيهات فى النصف ساعة.. كانوا ٢ وأنا مبتدئة !

* التليفزيون نبع وتدفق لستر فنانى المسرح ماديا ! حاجات كتير نجحت لى على شاشته : خيال المآتة ، الجدار ، الضحية ، لقاء الوداع ، والطريق ٤٠ جنيها فى النصف ساعة .

* سميحة أيوب ٦٠ سنة ؟ تقصد «تيزة سميحة»؟! يتهيأ لى حتكون الصحة عدمت . لكن سنى لن تعوقنى عن أداء الادوار الكبيرة المناسبة .. « أم » مكسيم جوركى مثلا . وجايز اتجه بشدة للاخراج المسرحى .. مين عارف ! ؟

* أمراض دائمة .. لا ! بس عندى ضعف فى الاعصاب . باخد مهدىء « أنسيدون » . ميزته انه يهدىء الاعصاب ، ويعالجها أيضا . وميزة ثانية : تعاطيه لايؤدى الى الادمان !

***

* وعيت على دنيا الانثى لقيت نفسى متزوجة الممثل محسن سرحان ! ابنى محمود الآن عمره ٢٣ سنة . قسوة منه ، وعدم تكافؤ فى السن . مرحلة خايبة فى حياتى استمرت ٣ سنين ! محمود مرسي زوجى الثانى . أستاذ فى فنه لى منه ابنى علاء ١٥ سنة . الحب يزرعه اثنان ، ويقتلعه اثنان : أى حبيبين !

* زوجى سعد وهبة . شفت له « المحروسة» سنة ٦١ ، قلت المسرح كسب قلما جديدا يكتب له ! ابلغته اعجابى . سنة ٦٢ ، نقرأ « السبنسة » استعدادا لتقديمها . أحسست باهتمامه بى . فاجأتنا اشاعة بأننا بنخرج نتفسح مع بعض. الاشاعة ، رغم كذبها ، قربتنا

لبعض أكثر ! من الاعجاب الثنائى نبت الحب . تزوجنا فى ٢٩ سبتمبر سنة ٦٣ . انجب ؟.. ولماذا أظلم طفلا ثالثا ؟ !

* الناس زى الايام ، فيهم الحلوة والمرة . لكنى لم أعد أبكى زى زمان كلما خاب أملى فى انسان ! أقرف من النفاق ، لا أحب أن اسمعه موجها لى .. أيضا تقطع رقبتى ولا أنافق احدا !

* أخاف من الموت . كيف يسقط الانسان الباسق الجياش هكذا فجاة ؟ ! كيف يصمت الناطق ؟ ! ضعفى نحو الالم ـ الم الآخرين ـ يبلغ حد الانهيار !

* حسابى مع نفسى حساب يومى . أصفيه أولا بأول ، ثم أضع دماغى على المخدة .. فأنام ! أحيانا تترسب فى نفسى على مدى النهار تراكمات معتمة ، فأحس انى مكبوسة بلا سبب مباشر .. ويكفىأن أصرخ ـ أينما كنت ـ صرخة طويلة مليئة ، فأشفى على الفور من كبستى !

***

اقول لك ياسميحة :

* زوجة المسئول عن عملها. زوجة سعد الدين وهبة، أحد كبار المسئولين فى وزارة الثقافة .. كسبانة والا خسرانة ؟ !

ـ خسرانة مية المية . لقد طلقت السينما طول ماهو فى منصبه ، ليهدأ الاغبياء !

* ولو جاء فى منصب مسئول عن المسرح ؟

ـ لا .. هنا مفيش أى حرج. المسرح أصلا بتاعى !! الا اذا عينوه مديرا للفرقة القومية ، ساعتها أشوف لى فرقة تانية أشتغل فيها !

* بالقياس : فاكره نجيب محفوظ أيام ما مسك

مؤسسة السينما ، منع رواياته من انها تروح السينما !

عمل زى ناظر المدرسة اللى رفد أولاده من مدرسته خوفا من شبهة الكوسة ! ؟

ـ بالضبط .. نجيب محفوظ هو نجيب محفوظ ، قبل الوظيفة ، وبعد الوظيفة . فلماذا لا يكون كذلك أثناء ممارسته للوظيفة ؟!

* هذه الحساسية . هذا الميل الغريزى لاستعمال « حزام العفة » فى غير موضعه ، خوفا من الشبهة .. نعالجه بأيه ؟

ـ بقانون يحتم على كل مسئول فى الدولة تعددت صلاحياته ، أن يجند كل هذه الصلاحيات فى خدمة الدولة .. دون حرج !

* هذا ليس علاجا . انه ضد قانون « الوظيفة الواحدة » . وضد تقدم صفوف الاجيال الى مواقع القيادة ، بصورة طبيعية ! ان المسألة فى حاجة الى ضبط أكثر دقة .. : رأيي !

سناء جميل:
.. أحكي لكم عن عقدتي!

من اول كلمة احسست أنها تصدر عن صدق نفسي، فأعطيت لكلامها ثقتي !

قالت لي ان في أغوار شخصيتها عقدتان نفسيتان. عقدة الاحمر ، وعقدة الاصفر !.. استمعت وصدقت!

قالت لي ان عقدة الاحمر هي عقدة الدم . وعمرها ٥ سنين ، أعطاها أبوها يوسف عطا الله المحامي ٥ قروش كاملة مصروفا من غير مناسبة . أو لعله كانت هناك مناسبة لا تذكرها . أخذت القروش الخمسة ونزلت على سلم البيت في حي فيكتوريا بالاسكندرية تقفز لتصرف ما في الجيب . عادتها من صغرها أن تقفز بدلا من أن تمشي، وأن تصرف كل مافي الجيب!.. التوت تحتها قدمها ، فارتطمت جبهتها بالحائط، ثم ارتدت الى الخلف لترتطم مؤخرة رأسها ببسطة السلم . لم تفزع من ألم الجراح قدر فزعها من منظر الدم وهو يتدفق فوق ملابسها البيضاء طوفانا أحمر ! وراحت القروش الخمسة . وبقيت لها عقدة الدم ! اصبحت لاتطيق منظر فرخة تذبحها سكين ! وساقتها ظروفها مرة الى احدى دور السينما تعرض فيلما أمريكيا .. في الفيلم قطيع بقر لابد أن يعبر نهرا . في النهر أسماك متوحشة وفكر راعي البقر أن يلقي للأسماك ببقرة تنشغل بالتهامها الى أن يعبر القطيع النهر . ألقى البقرة . ركزت العدسة عليها والاسماك تنهشها بقسوة ، ودمها يتدفق ليملأ الشاشة الملونة ، ويختلط بمياه النهر. وصرخت

« ثريا يوسف عطا الله » ـ اسمها الذى تعرفه : سناء جميل ! ـ وتقلصت معدتها حتى كادت تفرغ مافيها.. وأسرعت تهرول بخطوات مضطربة خارجة من السينما!

قالت لى : « بيقولوا من يعرف الاصل البعيد لعقدته النفسية فانه يتحرر منها .. وأنا أعرف أصل عقدتى ، ولكنى ما زلت عبدة لها ! »

... واستمعت وصدقت !

وقالت لى ان «عقدة الاصفر» سببها أمها ! كانت سيدة سمينة ، لها تحت ذقنها «لغد» . وكان من عادة الصغيرة ثريا أن تداعب أمها بأن تقرصها من لغدها ! وفى صباح استيقظت مبكرة وصعدت الى سرير أمها لتمارس مع لغدها مداعبتها اليومية . فوجئت بأمها ممددة واهنة الانفاس . وعيناها صفراوتان ، وجاء الطبيب ليقرر أن الام مريضة بالصفراء والتهاب حاد فى المرارة . ومن يومها والكبيرة ثريا تفتح عينيها على اتساعهما كل صباح امام المرآة ، لتتأكد من بياضهما ، خوفا من مرض الصفراء !

... واستمعت وصدقت !

وقالت لى ان عمرها ٤٩ سنة .. فهى من مواليد ٧ ابريل سنة ٢٦ . ثم عادت فقالت انها آسفة لان ذاكرتها ضعيفة من ناحية الارقام ، وانها من مواليد سنة ٣٠ ، فى نفس الشهر واليوم .

... واستمعت . لكنى ـ الحقيقة ـ احترت اى الرقمين أصدق ؟ !

***

قالت لى : « انا مانيانى المصرية » فى شهادة النقاد. وثريا يوسف عطاالله فى شهادة الميلاد .. وسناء جميل فى شهادة الفن ! ..

* تعلمت كيف أفك الخط من الشمال لليمين فى مدرسة الميردى ديه . كنت فى القسم الداخلى. شقية جدا . زعيمة جدا . أكبر شلة بين البنات كانت شلتى!

دخلت فريق التمثيل ، انتخبونى رئيسة للفريق من أول يوم ! كنت جشعة فنيا .. أختار لنفسى أعظم الادوار ، واترك الأدوار الهزيلة لفراخ الفرقة ! أول مسرحية قدمتها الفرقة فى حفل نصف السنة كانت مسرحية «سندريللا» اخترت لنفسى دور الساحرة التى مهدت لسندريللا الطريق الى قلب الامير ! وكانت « الاخت تيريز» مراقبة الفصل ساخطة على لشقاوتى .. لكنها كانت معجبة بفنى .. وكنت أنتظر يوم الحفل كل سنة بفارغ الصبر لكى أتلقى من الاخت تيريز كلمة اعجاب حلوة ترويني !

* أعترف انى كذبت على « أبونا » الكسندر قسيس كنيسة المدرسة وأنا « أعترف » أمامه ! كان من عادة التلميذات أن يجلسن أمامه كل أحد ويعترفن . وكنت أعتبر البنت التى تعترف أمام الاب الكسندر وتتناول منه كسرة القربان بنتا فاضلة مطهرة . لكن ماذا أقول للأب الكسندر ؟ ماذا يمكن أن ترتكبه بنت صغيرة فى مدرسة مغلقة الابواب ؟ ! لجأت الى خيالى لافوز ببركة الاب الكسندر . اعتدت أن أكذب عليه كل أسبوع كذبة جديدة .. « لم أود صلاتى قبل أن انام بالامس يا أبانا .. » .. « شتمت فايزة زميلتى يا أبانا وكذبت عليها .. » .. ويأمرنى الاب الطيب بأن أردد « أبانا الذى فى السموات ... » ٥٠ أو ١٠٠ مرة حسب جسامة الذنب .. ثم يمنحنى كسرة من قربانه !

... الرب يغفر لى !

* أخذت شهادة « الباشو » - الابتدائية - سنة

٤٣ ، كان ترتيبى الثالثة على المدرسة . أبى حجزنى فى البيت لـكى أنتظـر ابن الحلال . لـكنى كنت طـاقة متفجرة ، لا تركد ولا تنتظر ! .. كنت أدور كالنحلة فى غرف البيت : أمسح البلاط ، وادهن الباركيه ، وأطبخ طعام العائلة. فاذا فرغت من شغل البيت ، جلست فى ركن من بلـكونة البيت أقرأ « كليلة ودمنة » و « ألف ليلة وليلة » لاسترد لغتى العربية التى فقدتها فى مدرسة الميردى ديبه ! صممت على أن أكمل تعليمى . قرأت فى « اخبـار اليوم » وصفا حزينا لموكب محمود العيسوى قاتل أحمد ماهر وهو فى طريقه الى المشـنقة . بكيت اشفاقا عليه . قررت أن أدخل كليـة الحقوق وأطلع محامية !

* دخلت مدرسة «كورموران» الثانوية . وصلت فيها حتى السنة الثالثة . لم تعجبنى المدرسـة ولا الدراسة. كان النظام فيها سائبا .. والبنات «يزوغن» من الحصص ويقضين النهار مع الشـبان فى حديقة الاسماك . ترحمت على أيام الداخليـة الصارمة فى مدرسة الميردى ديبه !

* التقيت بصلاح سيد أحمد . شاب جارنا ضابط فى الجيش ، وكنت صديقة لزوجته . كان يهوى التمثيل ويستعد لتقديم أوراق التحاقه بمعهد التمثيل. اغرانى بأن أقدم أوراقى معه الى المعهد . دخلت المعهد سـنة ٥١ . كان زكى طليمـات فى منصب العميـد .اسس العميد فرقة « المسرح الحديث » . استعان بعناصر من طلبة المعهد وطالباته ، وكنت منهن . زكى طليمـات هو الذى اختار لى اسمى الفنى : سناء جميل !

* كانت طريقتى فى الالقاء ركيكة للغاية .. فلم أكن بعد قد استرددت لغتى العربية التى فقدتها فى مدرسة

الميردى ديبه ! استعنت بمدرس خصـوصى أعطانى فى سنة كاملة جانبا من دروس النحو والصرف والبلاغة . قرأت بنهم اعمال توفيق الحكيم وطه حسين . قرأت عددا من المترجمات، خصوصا ماعرف منها عن الفرنسية. وكنت اقرأ الاصل الفرنسي والترجمة العربيـة فى وقت واحد ، وأتأمل كيف استطاع المترجم ان ينقل الى العربية الجو الفنى أو الادبى للنص الفرنسى . تمكنت من لغتى العربية !

***

* شهد مسرح الازبكية مولدى الفنى شتـاء سـنة ٥٢ . كنت مع فرقة المسرح الحديث نقـدم لموليير الساخر مسرحيـة « مريض الوهم » . مثلت دور « انطوانيت » الوصـيفة فى بيت الرجل الموهوم على روحه الذى تخونه زوجته ، وتحب بنته شابا وتريد أن تتزوجه. ومع النمو الدرامى للدور، اتخفى فى النهايةفى شخصية طبيب ، وانجح فى اقناع الرجل الموهوم بأنه ليس مريضا ، وبأن زوجتـه تخونه ، وبأنه يجب أن يستجيب لنداء الحب ويسمح لابنته بأن تتزوج الشاب الذى تحبه ! تألقت فنيا فى هذا الدور بشهادة النقاد؛ وكلمات الاعجاب التى تلقيتها من زملاء فنى .

كنت أتقاضى ٦ جنيهات فقط مرتبا من الفرقة . و ٦ جنيهات اخرى منحة من المعهد لى ، ولـكل طالبة تعمل على المسرح .. من قلتهن أيامها !

* أستقال زكى طليمات من منصب العميد . ضمت فرقة المسرح الحديث لفرقة المسرح القومى ، وكان يديرها يوسف وهبى . خلافات. معاملة لا تليق . أدوار صغيرة وتافهة لا تتجاوز الوقوف على المسرح نصـف دقيقة والقاء كلمة واحدة ! أخذت فنى بين أحضانى واستقلت!

هرب معى أغلب الكفاءات الفنية الشابة ، أمثال : نور الدمرداش ، عبد المنعم ابراهيم ، وعصمت رافت .
أخذت دبلوم المعهد سنة ٥٤ ، كان ترتيبى الثالثة فى المواد ، والاولى فى التمثيل !

* اشتغلت بفرقة اسماعيل يس عند افتتاحها . امضيت فى الفرقة ١٠ أشهر اعرق كل ليلة على خشبة المسرح . وفى الآخر فصلتنى السيدة فوزية حرم اسماعيل يس ا.. دعتنى ضمن اعضاء الفرقة على حفل عيد ميلاد ابنها اسماعيل . انشغلت فلم أذهب فى الموعد . قالت عنى « الست » انى « قليطة » واصدرت أمرها الى المرحوم أبو السعود الابيارى بفصلى . رجانى الابيارى ان اعتذر لها واسوى المشكلة. أبت على كرامتى! قعدت شهرين ــ بقية مدة العقد ــ اقبض ٣٠ جنيها مرتبى دون عمل . وتدور الايام ويجىء اسماعيل يس، الله يرحمه ، ليقول فى التليفزيون ان سناء جميل « تخرجت » فى فرقته !

* وسنة أخرى ضائعة اشتغلتها فى المسرح العسكرى وجاء أحمد حمروش ليدير المسرح القومى . سأل وعرف كل شىء عن الكفاءات الشابة التى هربت من المسرح أيام يوسف وهبى . طلبنا . عدنا كلنا الى الفرقة كانت أيام حمروش العصر الماسى للفرقة . انشأ مكتبة فنية . انفتحت الفرقة على العالم العربى. سافرت الى الكويت ولبنان وسوريا والمغرب . قدمت مسرحيات عظيمة عالمية ومحلية : ماكبث شيكسبير . ثم غاب القمر لشتاينبيك . سلطان الظلام لتولستوى . بيت من زجاج لجان كوكتو . والناس اللى فوق لنعمان عاشور !

كان أجرى أيامها ٣٠ جنيه . اليوم لم يزد كثيرا.. اصبح ٨٥ جنيها . من يتصور ؟!

* حكايتى مع السينما حكاية غامضة وغير مفهومة ! بدايتى شهد لها الجميع سنة ٥٩ فى فيلم «بداية ونهاية» الفيلم فاز بالجائزة الثالثة فى مهرجان موسكو . كتب النقاد السوفييت اعمدة المديح لفن « نفيسة» ، اسمى فى الفيلم . كان أجرى فى منتهى التواضع ، ١٥٠ جنيها ! بعده بطولة فيلم « بلا دموع » . ثم « فجر يوم جديد » سنة ٦٢ .. وقفز أجرى فيه الى ألف جنيه ، وهو ايضا رقم متواضع ! ومن يومها لم يسأل احد عنى! هل لانى بدأت بأجر متواضع ؟ أم لانى كنت أذهب فى مواعيد الاستوديو بدقة « ساعة الجامعة » ، بينما يتأخر غيرى بالنصف يوم ؟ ! أم لانى كنت أحفظ أدوارى صم ، وأقف أمام الكاميرا وأنا فى «الفورمة» ، فلا تعاد لى لقطة واحدة ؟ !.. لا افهم !

سمعت أنهم فى بيروت أنشأوا ناديا فنيا باسم أصدقاء فن سناء جميل . وصلنى أخيرا عرض ببطولة فيلم لبنانى . صعب على !

* اشتركت فى ٤٠ تمثيلية تليفزيونية . أعتز منها بأدوارى فى : رنين . الوارثة . التمثال . أجرى ٤٠ جنيها عن النصف ساعة . قدمت فى الاذاعة حوالى ٢٠٠ تمثيلية فى ١٩ سنة . لا اظهر على المسرح القومي طوال الموسم ـ أى موسم ـ غير مرة واحدة ! اذا كان الموسم القادم ينتظرنى بمثل هذه البطالة المقنعة فسوف أستقيل .. انى لا أرضى أن أتقاضى أجرا ، مهما كانت ضآلته ، بلا عمل !

* زوجى لويس جريس، العضو المنتدب لمؤسسة روز اليوسف التقيت به فى بيتى ! صديقتى خديجة صفوت الصحفية السودانية عرضت على ان تقيم حفلا تكريم للصحفيين الذين ساعدوها فى مهمتها فى القاهرة

سنة ٦٠ .. لم تجد مكانا لاقامة الحفل بتكاليف معقولة. عرضت عليهاان تقيم الحفل فى بيتى . جاء لويس مع زملائه وفى قلبه نيه مبيتة . شاهد فى فيلم « بدايه ونهاية » قبل ان يحضر الحفل . راح يناقشنى فى دورى ولما فرغت معلوماته عنالفيلماستسلم لصمته وخجله. أحسستبقلبىانالمسألةليستمسألة «نفيسة بدايةونهاية» وانما مسألة سناء جميل شخصيا ! تتبعت كتاباته فى صباح الخير . وفى يوم اتصل بى بالتليفون وهمس من أول كلمة : « تتجوزينى ؟ » .. سقطت السماعة من يدى على السجادة من فرط الارتباك . ومن فرط الارتباكأيضالم استطع انأرفعها. . فتمددت علىالسجادة بجوارها وهمست من قلبى : موافقة. . ياطفلىالخجول!

* لا أستطيع أن ادعى أن بينى وبين سميحة ايوب صداقة عميقة . كل مابيننا زمالة عميقة لم نشأ فى يوم أن نرفعها الى مستوى الصداقة ! هى ممثلة عظيمة ومتطورة . لم أقلد فى يوم فنها ، وهى أيضا . لماذا يقارنون بيننا اليوم ويضعوننا فى موقف المبارزة ؟

ويتكلم لويس جريس بعد صمت دام ٤ ساعات منذ بدأت قعدتنا : « ربما لانكما أهم فرستين تركضان على خشبة المسرح ! »

***

قلت للسيدة حرم لويس جريس :

* نتكلم الآن عن اقتصادياتك كفنانة ، وعن قضية الفنان و « أكل العيش » .. لك رصيد فى البنك ؟

– خمسة جنيهات وضعها لويس باسمى فى دفتر توفير أيام حملة الادخار التى تبنتها مؤسسة « روز اليوسف » !

* وكم متوسطدخلك الشهرى ؟

ـ احيانا يرتفع الى ٢٥٠ جنيها . وأحيانا لا أجد غير مرتبى من المسرح !

* ومتوسط انفاقك ؟

ـ الطرفان فى بيتنا يتقابلان .. الدخل والمصروف.. و « الله جاب ، الله خد » !

* مدينة ؟

ـ انى أومن بالحكمة الانجليزية التى تقول : ابدا لا تكن دائنا .. ولا مدينا !

* عند مستوى اقتصادى معين .. عند مستوى كاف من رصيد المال يضمن احتياجات الحياة المقبلة .. يستطيع الفنان أن يفرض فنه لوجه الفن وحده ، دون تقيد بمقتضيات أكل العيش .. لأى حد تخضعين فنك لخبزك ؟

ـ أنا لا اقبل عملا لا اقتنع به فنيا مقدما .. ولن أعملها ولو مت من الجوع !

* غيرك يعملها ؟ !

ـ حرام أن يصل الفنان فى بلدنا الى هذا المستوى .. حرام أن يتنقل فنان كبير مثل توفيق الدقن بين استوديوهات الاذاعة والتليفزيون والسينما ، وكأنه يلعب « دوخينى يالمونة » لكى يلقط الرزق الكافى له ولعياله .. مع انه مريض : عنده سكر ، وعنده ضغط، وعنده طقم أسنان .. منتهى الحرام !

* تعرفين قيمة القرش ؟

ـ لا !

* تشربين ؟

ـ القليل يصلح المعدة ، ويرطب الاعصاب !

* أى خبز تأكلين .. البلدى أم الفينو ؟

ـ البلدى يوكل .. رغم سماره !

* حدثينى عن طموحك المـادى .. طموح الفلوس وحب التملك ؟

ـ لااعتقد انى سأملك يوما شيئا له قيمة.. ارضا مثلا أو عمارة . وكل ما أخشاه أن أمرض يوما ، فلا أجد أجر الطبيب !

صفية المهندس :
صوت بنت في الجامعة .. بضفاير ثانوى !

مساحة كبيرة من شخصية «ماما شارو» ، أو صفية المهندس ، تجدها عريانة فى برنامج «الخير والبركة» ! فيه بنوتها لابيها – ٨٠ سنة – الذى تعيش معه فى « بيتها » ، وتخدمه بكفوف الراحة ! وفيه وفاء لذكرى أمها التى رحلت من زمن ، وتتمنى لو تعرف طول ذبذبة روحها لترسل اليها البرنامج على نفس الموجة ! فيه وفاؤها ووجدانها البللورى الصافى . فيه رومانسيتها وحساسيتها المفرطة ، حساسية المريض نحو الصحة ، والفنان نحو كل قيمة جمال ! وفيه – ربما – عملية تقديم « سبت » لمن يريد أن يجد « الاحد » فى المستقبل قدامه !.. فماما شارو عبرت سن الاربعين بشهور ، وعدد من السنين لا يعلم مداها الا الله ، وادارة شئون العاملين بالاذاعة !

لكنها أكثر صحة . أكثر سمنة . أكثر أمومة . زمان شوية كنت اقول لها « يا ماما صفية » ، فهى تصر على انى شبه ابنها مصطفى الخالق الناطق ! .. لكنى لما التقيت بها اليومين دول انكسفت اقول لها « يا ماما صفية » .. قلت لها : « يا أبله ! » ويزيد من شباب أبلتى جمال صوتها وسلامته وصغر سنه .. صوتها فى أذنى – راديو . تليفون . سماع مباشر – صوت بنت فى سنة أولى جامعة ، تحتفظ خلف ظهرها بضفاير ثانوى ! ..

... ان أخوف ما أخافه أن يأسر صوتها أحد الشبان ،

فيتقدم بسلامة نية الى زوجها و « أبو عيالها » الثلاثة .. يطلب يدها ! !

***

قالت لى صفية المهندس، أول وكيلة وزارة فى الاذاعة المصرية ، ونحن نتكلم عن الشهرة .. « شهرة ايه يا أخ .. طيب بذمتك مين فينا أشهر من الثانى .. أنا والا مسحوق رابسو ؟ ! »

والاجابة الموزونة مثل تواضعها : مسحوق «رابسو» طبعا !

وبرنامج « الخير والبركة » ـ رغم أعباء الست الوكيلة ! هو آخر عنقود ابله صفية . الاخ الاصغر لبرنامج « ربات البيوت » وبرنامج « المراة العاملة ». تقدمه بعد اللحن المميز الرقيق بجمل أكثر رقة.. تقدمه الى الشموع التى اضاءت طريق طفولتنا، وما زالت تشيع الدفء فى شبابنا .. الى الذين نخفض لهم جناح الذل من الرحمة .. الى الذين يملئون بيوتنا وحياتنا بالخير والبركة !.. وفكرة البرنامج طلعت لها من البحر فى قعدة صيف فى المعمورة ، سنة ٦٦ ، عيد ميلاد والدها زكى المهندس . جملة عابرة من قريب يجامل « عقبال ١٠٠ سنة يازكى بيه » .. رد الشيخ بزهد الشيخوخة : « البركة فيكم أنتم .. احنا خلاص شبعنا دنيا » .. « ازاى يافندم » .. ده القريب المجامل « - ذانتم الخير والبركة » !.. لطشها التعبير التقليدى كأنها تسمعه لاول مرة !.. الاذاعة تهتم بالطفل والرجل والمراة . فلماذا لا تخاطب فى برنامج مستقل أهل الخير والبركة ؟ كيف يتجاهل شباب اليوم شباب امبارح بهذه الصورة القاسية ، وكأنهم سيخلدون فى الدنيا شبابا ؟!

وقررت أن تتبنى بنفسها البرنامج ، لكي تزرع الخضرة

فى قلوب شباب امبارح .. تقول لهم أن الحياة بالنسبة لهم لم تنته . وانه يمكنهم فى هذه السن أن يرشفوا بسعادة وتأمل عصير الحياة !

فى حلقة من برنامج الخير والبركة قالت صفية المهندس بخبث لشاعر الشباب أحمد رامى : « لو عملت خط بيانى لشباب أغانيك ، نشوف فيها سنك بالضبط .. فشعرك يكشف عمرك ! فى « أنت الحب » تقول :

ولما أشوف حد يحبك
يحلى لى أجيب سيرتك وياه
أسأله .. ان غبت عنه .. ياحبيبى
يشتاق اليك قدى أنا ؟ !

وتساءلت صفية : « حد يقعد مع العذول ، كده رجل على رجل ، ويجيب سيرة الحبيب المشترك .. وياه ؟ ! سلوك يفضح فعلا عمر الحبيب ! » .. ورد رامى : « بالعكس .. أنا قلت فى شبابى معانى أكتر من كده صفاء وسلامة ومسالمة .. أنا طول عمرى راجل مسالم .. حتى مع عواذلى » !

وتشرف صفية المهندس على برنامج « ربات البيوت » منذ صيف سنة ٤٧ .. كان اسم البرنامج « ركن المرأة » . ولم يكن فى الاذاعة كلها غير فستان واحد بداخله المذيعة المبتدئة صفية المهندس ، فعهدوا اليها بتقديم البرنامج! ومن سنوات انشطر البرنامج برنامجين : ربات البيوت . والمرأة العاملة .. وتلاحظ صفية المهندس أن ربة البيت بدأت تلتحم بالمجتمع ومشاكله .. وكانت الى سنوات قريبة تتصومع داخل مشاكلها مع زوجها .. وتربية أولادها .. وعلاقتها المضطربة بحماتها ! أما أخطر قضية تواجهها المرأة العاملة الآن فهى : ثقافتها التى تنتهى وتتجمد عادة عند حدود المؤهل الدراسى !

وافتح الميكروفون على صفية المهندس ، وأسيبها تتكلم .. :

* زكى محمد المهندس يبقى والدى .. وكيل المجمع اللغوى الان، وعميد كلية دارالعلوم قبل ٢٠ سنة . والمهندس ليس اسم أحد أجدادى .. هولقب جدى محمد .. فقد كان المهندس الوحيد فى حى سيدنا الحسين ، فأطلق عليه أهل الحتة « محمد أفندى المهندس» لزق اللقب فى العائلة ! عمرى فى الاذاعة ٢٨ سنة . وفى الدنيا « .. » سنة ! ولانى الانثى الوحيدة الان فى بيتنا ، أتمتع بمركز ممتاز.. الكل يدلعنى .. بابا يناديني «ياصوصو» . وشعبان يقول لى «ياوظ». أما أولادى الثلاثة فيسألون عنى أباهم اذا وصل البيت قبلى .. « القطة حتيجى امتى من الاذاعة يا بابا ؟! »

بيتنا ، بيت العائلة ، فى العباسية الشرقية .. حى المشاهير . من أولاد الحى : نجيب محفوظ . احسان عبدالقدوس. صلاح الشاهد. انور وجدى. وعبدالحليم .. حافظ لا .. نويرة ! الثانية بعد أختى درية حرم الدكتور ابراهيم انيس استاذ اللغات بجامعة عمان وبعدى بسنة أخى فؤاد المهندس وبعده بسنة اخى سامى ، وهو مهندس بالاسم والمهنة ايضا !

* جئت اتكلم .. تهتهت ! .. صاحبتنى التهتهة حتى المرحلة الثانوية . لوتنبألى أحد أيامها بانى سأصبح فى المستقبل مذيعة ، لضحك الجميع للنكتة وفطسوا ! لكن تهتهتى كانت طريقى الملهم الى ميكروفون الاذاعة .. ساقتنى الى فرق التمثيل فى ثانوى وفى جامعة .. ورآنى محمد فتحى وانا أمثل مع فريق كلية الآداب على مسرح دار الاوبرا فرشحنى للعمل فى الاذاعة بعد التخرج .. شوف النصيب !

انطوائية حتى بين اشقائى. تهتهتى طوتنى ! فى • نوبة ماشية مع ابى ويدى فى يد أخى فؤاد على كورنيش الاسكندرية .. شفت معزة . عيطت وقلت .. « عاوزة و..».. لم يفهمنى أبى • ظن أن « فؤاد » قرصنى فقرصه من أذنه عقاباله ! فى البيت عاد أبى يسألنى فقلت له .. « عاوزه م .. بقول عاوزه م .. م .. ع .. ز .. ة » ! اشترى لى معزة • لكنها بعد شهور قفزت من سطوح بيتنا فى العباسية ، وانتحرت!

أبى كان أستاذا فى التربية وعلم النفس • عالجنى بطريقته • نبه على اخوتى بصرامة الا يسخروا منى وأن يستمعوا لتهتهتى بصمت واحترام ! كرر التنبيه على أبلتى فى مدرسة روضة أطفال العباسية. شجعنى دائما على أن أقرأ دروس المطالعة بصوت عال !

* طفل اسمه « كمال » زميلى فى الروضة . جنب بعض على تختة واحدة . ايدينا فى ايدين بعض فى طابور الصباح وهو يمشى الى الفصل • بسكويت وكوب لبن فى الفسحة • لكنه لا يحب البسكويت.. كنت أعطيه كوبى وآخذ نصيبه فى البسكويت .. انا آكل ، وهو يشرب بسعادة ! نقلونا مرة من جنب بعض، فبكينا بكاء حتى صعبنا على الابله فأعادتنا لبعضنا ! فى الجامعة ــ فيما بعد ــ رايحة كلية الآداب ، لقيت كمال رايح كلية الزراعة .. ضحكنا من بعيد لبعيد ، وافتكرنا صداقة البسكويت !

عادية ــ كنت فى دراستى • أتعس لحظاتى اذا جاء مفتش واختارنى لاجيب عن سؤال .. تخرسنى تهتهتى فلا أقول شيئا ، مع ان الاجابة فى رأسى حاضرة ! أخذت الابتدائية سنة ٣٧ •

* مدرسة السنية الثانوية .. دخلت فريق التمثيل

لاحل ما بقى من عقدة لســانى ! كنت أبلد تلميــذات المدرسة فى الهندسة والجبر والتدبير المنزلى ، مع انى درست التدبير على يد أبلة نظيرة نيقولا شخصيا ! دخلت مرة « اليمكخانة » لامتحن فى التدبير . أعطونى فرخة أنظفها وأطبخها ، فقعت مرارتها ، فأصبحت الشوربة فى طعم شربة الملح الانجليزى ! سقطت طبعا . وفى الدور الثانى أعطونى بطة .. سلقتها بأحشائها لاتفادى مرارة مرارتها !.. أبلة نظيرة نجحتنى رغم ذلك ، لكنها قالت لى : « اذا فلحتى .. ابقى قابلينى » !.. وتمر الايام وتقابلنى أبلة نظيرة فعلا .. تجىء لتقول حديثا فى ركن المرأة سنة ٤٩ .. قلت لها بغرور أول الشباب : « ابه رأيك بأه يا أبله .. أدينى فلحت أهه ! ؟ ».. أجابتنى ســاخرة : « أعمل ايه يابنتى .. يدى الفولة للى بلا أسنان » !

* تمكنت منى هواية التمثيل .. فى البيت فى ساعة الفراغ كنت أنزل لامثل فى بير السلم مع أخى فؤاد .. غالبا كان يمثل دور طرزان .. وأحيانا يتصورنى أسدا يهاجمه فيطبق فى زمارة رقبتى بعنف يؤلمنى ! ويضحك أولاد الحتة ، ويدفع كل واحد حق التذكرة شــوية لب ، أو عفاريت الست !

غرقت فى مكتبة أبى .. كتب الادب والتربية وعلم النفس أرفف أرفف ! قراءاتى دفعتنى الى التفوق فى الدراسة . أخــذت البكالوريا ســنة ٤٢ . الاولى على المدرسة ، ٧٦ ٪ ، قسم أدبى .

* أختى درية تزوجت .. اذن أتزوج وأقعد ، بلا دراسة بلا دباولو ! اتجاه عائلى ! صممت على دخول الجامعة ، دخلت كلية الآداب قسم انجليزى . فريق التمثيل بالـكلية كان يقدم حفلاته على أشهر مسارح

المدينة . فى ليلة كنا نقدم رواية شكسبير « زوجات وندسور المرحات » على مسرح دار الاوبرا . اللورد كيلرن ، المندوب السامي ، موجود . النقراشي رئيس الوزراء . كبار شخصيات الدولة والحكم ! نجاح . تصفيق فى كل مرة أظهر على المسرح . بابا شارو ــ حكى لى ــ كان بين المتفرجين يومها .. حط عينه على .. راجع البرنامج المطبوع ليعرف اسمى فوجده « صوفى زكى ». قال لنفسه : «تبقى مسيحية موش من دينى » .. وصرف نظر !

* محمد فتحى مراقب برامج بالاذاعة ، يعرفنى من نادى خريجى قسم الادب الانجليزى ، فقد كان رئيس النادى . شافنى أمثل أكثر من مرة . فى مرة قال لى : « يالله شدى حيلك كده وخلصى .. علشان ناخدك الاذاعة » !

أخذت الليسانس بدرجة جيد سنة ٤٦ . محمد فتحى هو الذى أبلغنى بالنتيجة بعد أن عرفها من الكونترول ! عمل لى « تست » سريع ، وقال لى : « تيجى من بكره تستلمى الشغل » ! وافق أبى بعد تردد ، فقد كان الاشتغال بالاذاعة أيامها تصرفا منتقدا كالاشتغال بالرقص فى شارع محمد على ! أعضاء مجمع الخالدين قابلوا أبى بثورة .. منصور « باشا » فهمى قال له : « بأه تعلمها يا زكى بيه ، وآخرتها ترميها فى الاذاعة ؟ ! ما يصحش برضه ! » .

* وحيدة ــ ايامها ــ فى مبنى كله رجال .. لكنهم فى الاذاعة كانوا يساعدوننى لدرجة التدليل ! تمرنت على العمل الاذاعى مع عبد الوهاب يوسف وعلى الراعى . واجهت الميكروفون لاول مرة لاقدم أغنية « نسمة حائرة» لعبد الوهاب وشعر عزيز أباظة .. من لخمتى قلتها :

« .. شعر عزيز أباشا باظة » ! حتى الآن تنشـــد أعصابى وأنا أفتح الميكروفون .. ودايما أقرأ الفاتحة! رواد قهوة البرابرة بشـــارع الشريفين القديم ، والراديو يذيع بصوتى ، كانوا يقولون لبعضهم : «الحق .. البت أهيه بتقرا » ! وفى مرة دخلت مع أحـــد المقرئين لاقدم التلاوة ، فانزعج الشيخ وطالب بأن يقدمه مذيع رجل .. بدعوى انه يخشى على نفسه من الفتنة !

* قدمت « ركن المرأة » صيف سنة ٤٧ ، كان مجرد عملية تجميع لـكل الاحاديث النســائية الموزعة على البرامج فى برنامج واحد ! كان فيه عبارة تقليدية أقولها بعد اللحن المميز للبرنامج .. « سيداتى آنســاتى .. ركننا يبدأ الان».. فى يوم تغيبت لمرضى.. قدم مذيع زميل البرنامج دون تصرف فى التقديم . كان صــوته الرجالى وهو يقول .. « ركننا يبدأ الان .. » .. حاجه تضحك !

كان محمد محمود شعبان المشرف على البرامج الثقافية ، بما فيها ركن المرأة . رئيس جاد وصعب . يحاسبنى على أقل هفوة حساب الملـكين ! اشتكيته مرة لمحمد قاسم مدير الاذاعة ، قال لى المدير : « معلهش يابنتى .. هو يمكن شديد شوية .. لـكن ده الاذاعى اللى ممكن يعمل منك حاجة فعــلا » !.. وبعــد شــهور استطاع بابا شارو أن يعمل منى زوجة له ! جاءت ، هكذا ، بعد شىء من الالفة .. قال لى ذات يوم وتقاطيع وجهه لا تفصح عن شىء .. « قولى لى ياصفية .. أقدر أقابل باباكى فين ؟ » .. أجبته : « على قهوة بورفؤاد .. بعد الضهر » .. وجاء أبى آخر النهار يسألنى : « ايه رأيك فى الاستاذ شعبـــان ؟ » .. دق قلبى ، وصمت لسانى! وكنت قد رفضت قبله عشرات العرسان،

بعضهم أصبح الآن وزيرا أو أستاذا فى الجامعة .. أحسست ان شعبان غير الكل .. جاد ، راجل ، شفاف ، عاطفي ، صافى القلب ، معدن ! تزوجنا فى ٢٣ نوفمبر سنة ٥١ ، ٣ أولاد كلهم صبيان لكنى أحبه أكثر من أولادى !

* الزواج نظام اجتماعي طبيعى . بعد ٢٤ سنة تبقى منه العشرة والالفة ، يبقى السلام والتكافؤ ، يبقى السكن ! والطلاق مهما كانت دوافعه فهو أبغض الحلال .. لكنه قد يكون الحل السعيد لمشكلة شخصين لم يأتلفا ! تمر بنا الان كمجتمع مرحلة انتقال .. ألغينا الزواج عن طريق الخاطبة ، ولم نوجد بديلا للخاطبة كوسيلة للاتصال الاجتماعي .. أولادنا سيجدون بديلا ، سيبتكرون تقاليد جديدة للزواج العصرى ! رأيى : ليس اقل من ٥٠ جنيها ميزانية لفتح بيت زوجية مبتدىء ومعقول .. لذلك العروسة العاملة مفضلة دائما .. بنت البيت لم يعد السوق سوقها !

* لا تسألنى عن فشلى ، فأنا محظوظة وموفقة وأمى داعية لي ! كزوجة وأم ــ أعتقد ــ ممتازة . كست بيت بالمعنى التقليدى ٥ على ١٠ ! فأنا لا أدخل المطبخ الا لاعمل بعض أصناف الحلو التى أعرفها ! عندى المرارة ، مرض مزمن من أيام حملي فى ابني مصطفى . وعندى ضعف فى الاعصاب . مزاجي النفسي متقلب .. أحيان أجد نفسى « مكبوسة » .. وأحيانا مرحة وفرحتي دندنة طروب علي لساني .. هكذا دون أسباب مباشرة ! أحس ان الدنيا لا تساوى الصراع من أجلها . وأحس انها تتسع لسعادتى ، وسعادتك ، وسعادة الكل !

***

أقول لصفية المهندس :

* أيهما يعبر أكثر من الآخر : الصوت .. أوالشكل؟
ـ الصوت أصدق .. زى البصمة !
* وكيف ترين بصمتك .. ما هو توصيفك لصوتك؟
ـ يصفه النقاد أصدق كلمة جميلة كتبها عنى كمال النجمى فى « الكواكب » ، لا أذكرها ولكننى أشكرها ! وكلمة كتبها احسان مرة فى « أخبار اليوم » ، قال :
« ... صوت صفية المهندس يشعرنى بأنى فى بيتى ان فيه هدوء البيت .. وراحة البيت .. واحترام البيت .. وحنان البيت .. وحب البيت » !
* الصوت يفضح صاحبه .. يفضح فيك ايه أكثر؟!
ـ وضوحى ، وطيبة قلبى !
* الصوت الاذاعى الجيد .. ممكن يكون صوت غنائى جيد ؟
ـ موش شرط .. ولا العكس أيضا .. هناك مطربات عظيمات تسمع صوت الواحدة منهن فى التليفون .. ياحفيظ !
* لماذا رفضت الاشتغال بالتليفزيون فى أول أيامه ؟
ـ التليفزيون عاوز دم جديد .. بنات صغيرات يبدأن ويكبرن فيه .. ويبقى بتاعهم وهم بتوعه ! ده زائد ان الراديو خلاص .. حياتى !
* هل صحيح ان الشكل السمح ينفتح أمامه باب الرزق ؟ !
ـ الى حد كبير .. فالوجه السمح يفتح القلب . وأقصد بالسماحة الوجه الرايق ، المبتسم البرىء ، لا الوجه الجميل !
* اذن هناك علاقة بين سماحة الوجه ، والنجاح فى الحياة ؟
ـ أكيد !

* وكيف تعللين نجاح القرود .. أقصد أصحاب الوجوه القبيحة ، لكنهم لامعون فى أعمالهم ؟ !

ـ صاحب الوجه القبيح الناجح غالبا خفيف الدم . موهوب . قوى الشخصية !

* ما هى مواصفات صوت المذيعة الناجحة ؟

ـ السلامة فى التكوين والجاذبية .

* ومواصفات صوت مذيعة التليفزيون الناجحة .. وشكلها ؟

ـ تقاطيع الوجه المعبرة . الشخصية المقنعة .. وقبلهما سلامة الصوت وجاذبيته .

* صوتك .. له فضل عليك ؟ !

ـ أى نجاح حققته فى حياتى ـ ان كان هناك لى نجاح ! ـ الفضل فيه لصوتى أولا .. وعقلى ثانيا .. وثالثا : لسلامة نيتى !

فؤاد المهندس :
هو .. والمنديل الحلاوى !

تشوفه خلف ساتر الكواليس فى الايام الاولى لأى مسرحية جديدة .. آخر خانكة ! يشد شعر مدبولى من الغيظ !.. ويلعب حواجب الغضب لشويكار، فوق عيون حمراء الهبها ارهاق العمل ، ولبس النظارة الطبية مسافات زمنية طويلة!.. ويأخذ المخرج ركبة فينحنى صاغرا ويتألم !.. ويصرخ فؤاد المهندس بحدة من عل عليه مصرانه الاعور ... « أنا قلت ميت مرة موش عاوز اعمل النص ده . زفت . شخاخ عيال » !!.. هكذا على طول احساسه الاول فى أيام افتتاح مسرحياته الجديدة .. أكثرها نجاحا ، وأكثرها فشلا !.. وأتذكر اسم الدلع الذى كانت تناديه به زوجته السابقة شويكار .. كانت تقول له يا « فو » .. و « فو » بالفرنسية يعنى « مجنون » .. وشويكار تجيد الفرنسية ، بينما لايعرف فؤاد منها غير كلمة « مون ليفر » .. وترجمتها « كتابى » !!

ويظل « فو » تحت جلد دوره وأدوار الآخرين فى المسرحية طول الاسبوع الاول من الافتتاح . صوت الملقن عال ؟ لايهم . المهم أن يصل أعضاء الفرقة الى الفورمة، ويلبسوا الدور دون أن تصدر عنهم أية أخطاء مزعجة! وكلما زادت درجة التوفيق فى الاداء ، كلما زاد عدد الركعات التى يصليها « فو » بجوار الباب الجانبى لمدخل المسرح ، وكلما زادت الركعات طولا وعمقا ..

« باستجديه التوفيق بطمع والحاح .. أستجدى مين غيره ؟! »

وتنقشع ايام الافتتاح بعصبيتها الملونة . يهدأ صوت الملقن بعد أن كان يزعق فى جماعة طرش !.. ويخرج المهندس من تحت جلد دوره ليطل بجزء من انتبـاهه على المتفرجين . يرى وجوههم وجها وجها ، بعد أن كان لايرى منهم الا صـفوفا من الملامح الماسحة !.. يراقب تأثير عبارات الحوار المضحكة فيهم . يسجل فى باطن ذاكرته انطباعا سريعا ! متى يضـحكون ؟ ومتى يقزقزون اللب، أو يدخنون السجاير «كتيمى» رغم أنف المحافظ ؟ ! ومتى يأخذ الواحد منهم تعسيلة وكأنه فى بيتهم ؟ ! ومن هذه الحصيلة الانطباعية يعيد المهنـدس تقدير الموقف الفنى للمسرحية الجديدة ، ويضع على خدودها لمساته الاخيرة !

. ... ولد فنان . أستاذ . انما : فين المدرسة ؟ !

***

فؤاد المهنـدس معك على الخط يقول .. والحديث يطول :

* وعيت لقيت أبويا مفتش لغة عربية ، ولقيته يخلع الجبة والقفطان زى « الدراعمة » ـ خريجى دارالعلوم ـ ويلبس بدلة رمادى مخططة بقلم أزرق ، ويدخـل دنيا الافندية ! وعيت لقيت أبويا « بيه » رسمى ... وكنت أحرص على أن أكتب اسمى على كراريس مدرسة الظاهر الابتدائية : فؤاد زكى بك محمد المهندس !

جئت كالفرج فى ٧ سبتمبر سنة ٢٤ ، لاصبح الذكر الوحيد فى البيت اذا استثنينا أبى! ملى صغير ورعيتى أختى درية ، وأختى صفية المهندس ! ٧ سنين وطلباتى فى البيت أوامر .. وفى يوم أحسـست أن فى البيت

انقلابا ، وانى اخلع عن عرشى .. غرفة نوم امى مغلقة وهى تزوم أحيانا ، وتصرخ أحيانا بألم .. هدأ صراخها، وارتفع صراخ غريب يشبه مواء قطة . اقتحمت عليهم الغرفه فوجدتهم مطهومين فى لف مولود صغير فى خرق بيضاء قديمة .. « موش تبوس اخوك سامى يا فؤاد وتقول له حمدلله على السلامة ؟» .. واحسست ان ذلك الحيوان المغموص هو خالعى عن العرش ، ومصدر الخطر على هيبتى وسيادتى . وفزعت الى ابى فى غرفة مكتبه .. « بابا .. الواد اللى انتو جايبينـــه ده .. بيشتمنى » !! واخذنى ابى على قد عقلى.. « معلهش ياحبيبى .. حاقوم دلوقت أكسر لك رقبته » ! تعودت فيما بعد أن أعايش أخى وأحبه ، لـكنى ظللت لفترة أتلذذ بذبح القطط الصغيرة بأى قطعة زجاج أصادفها.. مواؤها كان يذكرنى بلحظة ميلاد أخى ، لحظة سقوط عرشى ! ..

* من صغرى والتقليد لعبتى . أقلد شخصية أى حد بعد ٥ دقائق ، مهما كانت شخصيته ماسحة ! اقلد أبى لأمى ، وأمى لأبى ، واقبض مصروفا مضاعفا من الاثنين ! صقلتنى دروس ابى لى فى الالقاء ..كان يحرص أن أسمع له قطع المحفوظات مع تمثيل المعانى.. وكبرت فنسيت المحفوظات ، لـكنى مشيت فى التمثيل !

* الخص لك تعليمى : مدرســة الظاهر الابتدائية بالعباسية. عسكرى الداورية فى الحتة ، من اجل بريزة شهرية ،كان يمر على بيتناكل يوم ليوصلنى المدرسة.. يطل براسه من قضبان بوابة البيت ويهدر .. « هوه الواد فؤاد لسه ماراحش المدرســـة ! ؟ » من فزعى أعملهــا على روحى .. وتنشط أمى فتغير لى ملابسى المبلولة وتسلمنى للشاويش يجرنى .. الى المدرســة !

من يومها أصبح التعليم فى نظرى أبغض الحلال عند الله! من مدرسة لمدرسة ، أخذت الابتدائية من مدرسة العباسية سنة ٣٧ .

دخلت « فاروق الاول » الثانوية ، العباسية الثانوية الان . ومن سنتها حتى بكالوريوس التجارة وانا من هواة المذاكرة الصيفية ، أزعل لو ماجانيش ملحق أمتحنه فى سبتمبر ! أوائل سبتمبر ٣٩ ، رايح آخد درس الفرنساوى عند الدكتور جمال صدقى ـ طالب طب أيامها ـ لقيته دافن وجهه فى الجرنال وهو يصرخ : « هتلر عملها .. الحرب قامت » ! رميت كتبى ونزلت أجرى فى الشارع أزف البشرى للناس ، كنت أتصور مادام فيه حرب يبقى مفيش ملحق !.. اتضح انى غلطان !

أخذت الثقافة سنة٤١ . وتوجيهى٤٢ بمجموع ٤٣٪ اعدت السنة لاحصل على مجموع يدخلنى الطب كرغبة العائلة ، لكنها فرقت معى بنطا بالناقص .. حصلت على ٤٢ ٪ فقط ! ٥ سنين فى كلية التجارة ، ٤ منها قضيتها فى تأمل حيوانات الجنينة ـ حديقة الحيوان ـ وهى فى اقفاصها .. تأكل . تغضب . تغازل بعضها وتمارس الجنس !.. اخذت البكالوريوس شعبة محاسبة سنة ٤٨ .. والتقدير ـ موش حتصدق ـ جيد !

* الخص لك ثقافتى : أعترف انى متأخر نسبيا فى ثقافتى العامة ، لكنى أعد الآن خطة لاثقف نفسى !.. روايات الجيب ذبحت اهتمامى لفترة طويلة . من الكتب القليلة المؤثرة قرأت : «كفاحى» لهتلر . و«حياة محمد» لحسين هيكل . أقرأ الاهرام من الشمال لليمين، أبدؤه بالصفحة الاخيرة وانتهى بمانشيت الصفحة الاولى ! أقرأ الكواكب وصباح الخير .. وآخر ساعة والمصور أحيانا !

* العصر الحديث ، الديكتاتور الاعظم ، أضـــواء المدينة ، مسيو فيردو .. كل أفلام شـابلن شـفتها فى صباى. اتهبلت وقلت : «عايز لمستقبلى من ده ! » سنة ٣٥ وما بعدها احترفت الوقوف عند دكان السجاير على باب مسرح الريحانى .. ويجيء الريحانى ويطلب علبة معدن ممتاز وهو مجعوص فى كارتته ، أسارع اليه بالعلبة وأعود لصاحب الدكان بالفلوس .. لحظـــات قصيرة ، لـكنها عندى كانت شهية كالطعام !

* تاريخ وبيعيد نفسه !.. فى مدرسة فاروق الاول الثانوية. فرقة المدرسة فى حفلة تقدم «يوليوس قيصر». لم يعجبنى تمثيلهم ، ففتحت أنا وشلتى عليهم مدافع التريقة !.. حرمونى من دخول حفلات المدرسة. كونت فرقة خاصة . فرقة رابعة رابع ، من زملائى فيهـــا يعقوب ابن الشيخ زكريا أحمد ، ومصطفى عبد الرازق ابن وزير الاوقاف أيامها ، وصلاح ذو الفقار.. الناظر نجيب هاشم ـ سفيرنا السابق فى روما ـ شاف لنـا سكتش « فرقة حمدان » على ألحان زكريا أحمـد .. حل فرقة المدرسة ، واعترف بفرقتنا . من يومى وانا فى خصلة انشاء الفرق الخاصة ! !

* فى الجامعة.. أحسست بثقل دم الفرق الرسمية.. أنشأت فى كل كلية فرقة خاصة وانا رئيسها ! دار الاوبرا تقدم مسرحية « فيوليت » من اخراج حسن حلمى الله يرحم أيامه.. دورى دور « وبشوت » . أدخل على المسرح بملابسى الرومانية وغصن الزيتون يعلو رأسى ، واقول لزوزو حمدى الحكيم بكل شجاعة ووقار: «هأنذا وبشوت».. الناس فطست من الضحك ، انهم يسكتوا؟ أبدا .. درت حول نفسى ابحث فى ملابسى عما يضحكهم، لم أجد شيئا .. طلعت باللبس الرومانى جرى على

الكواليس ، على ميدان العتبة .. وحسن حلمى فى ظهرى .. « ياولد .. يافؤاد .. ارجع يافؤاد » .. قلت له وغصن الزيتون يهتز فوق راسى من الانفعال : « موش راجع .. ياعم أنا ماليش فى الدراما » !.. وقلبتها كوميدى من يومها !

* نور الدمرداش تخرج سنة ٤٦ وساب رئاسة فرقة الكلية .. مسكتها انا . الريحانى كان ممنوع عليه أن يدخل بفنه حرم الجامعة ، رحت له وطلبت منه يخرج لنا رواية .. اندهش على روحه ، لكنه احبنى وأحببته لدرجة العشق الفنى ! أخرج لفرقتنا .. فى فصلا من روايته « حكاية كل يوم » .. فى هذا الفصل يحكى الريحانى جانبا من تجربته الغرامية مع بديعة مصابنى ! رضعت من الريحانى حاسة الكوميديا والقاء الديالوج الكوميدى .. كان يقول لى : « يا ابنى أنا اديلك خلاصة ٣٧ سنة فن ! » رافقته فى مشواره الاخير من رحلة فنه .. حتى شفته على مسرح محمد على بالاسكندرية وهو يمثل آخر رواياته « الدنيا على كف عفريت » .. ويسقط فى الفصل الثانى يهذى من حمى التيفود . ويرسل طبيبه ليشترى من لندن شحنة من « التيرامايسين » العقار الجديد الساحر .. لكنه يموت فى المستشفى اليونانى ظهر ٨ يونية سنة ٤٩ .. وغروب نفس النهار - أقدار ! - تصل شحنة التيرامايسين بالطائرة !!

* سنة ٥٣ ، أسمى الفنى بدأ يظهر للعيان . محمود ذو الفقار يقدمنى للسينما فى بطولة فيلم « بنت الجيران » أمام شادية ، وباجر ١٠٠ جنيه ، كانوا ١٠٠ ساعة نحس !.. الفيلم سقط ، وعمل لى نكسة فنية فضلت أعانيها منزويا فى ركن بابا شنارو مع « البفيفان »

و « أبو الفصاد » والاطفال حتى سنة ٥٥ !
عملت فرقة الكوميدى الجامعية ، لكنها قفلت بعد أسبوعين .. مفيش تمويل ! انفتحت طاقة القدر فى برنامج ساعة لقلبك « محموووود .. ياحبيبى » ! كبر البرنامج وكبرنا كلنا معاه . لكن البعض يفضلونها عدا ونقدا ، فانهبلوا على احياء الافراح والليالى الملاح ..

كسبوا فلوس، وخسروا الفن.. وحلينا فرقةساعةلقلبك المسرحية ، وساعة لقلبك الاستعراضية أكثر من مرة لهذا السبب ! المرة الاخيرة سنة ٦٠ .. شافنا د.ثروت عكاشة وزيرالثقافة والارشادالقومىأيامها فقال لناعبارته الشهيرة : « لا تفسدوا الفن ! » .. قالها بالانجليزية : «Don't spoil the art !» سنتها دب الخلاف المالى بين أعضاء الفرقة ، فضلفوا بابها للمرة الاخيرة !
* لا . كل ده وأنا فى الوظيفة . أنا لغاية النهاردة فى الوظيفة . من سنة ٤٨ وأنا مراجع حسابات فى الجامعة . ارتكبت اخطاء حسابية ما زالت حسابات الجامعة تعانى منها للآن !.. الآن موظف فى مكتب عبد العزيز وصفى وكيل وزارة الثقافة . أروح أعمل ايه؟! درجة ثالثة على ما اظن ، الا اذا كانوا رقونى ! .. تلاقيهم رقونى !
* فى الفرقة الثالثة من الـ ١٠ فرق بتوع التليفزيون عملت « السكرتير الفنى » ، عثرت على نفسى . أديت دورى لاول مرة بشخصيتى الفنية المستقلة ، الذين يقولون انى كنت ألبس جاكتة الريحانى مخطئون، التبس عليهم الامر . فالسكرتير الفنى هى نفسها « الجنيه المصرى» التى قدمها الريحانى سنة ٣٧ . وعندما فشلت أعاد كتابتها وقدمها باسم « الدنيا ماشية كده»! وأنا لسنت فأرا فى كم الريحانى !.. لا أحب الكوميديا

التى تخرج من بنطلون مقطع وجاكتة بكم ونص.. احب الكوميديا القيافة . الكوميديا اللى تطلع من الروب دى شامبر ومن دبوس الكرافتة الايرجنس ! تلاقينى كده فى «أنا وهو وهى» و « أنا وهى وسموه » و « حواء الساعة ١٢ » و « سيدتى الجميلة » !

* الضحك عندى للحياة . لكن فى غيبة النص الكوميدى الهادف ، لابد ان أقدم الضحك للضحك ، فهو رغم كل شىء صحى ومفيد ! افهمونى الله يريحكم !

* فرقة المتحدين .. أجرى فيها كان ٢٥٠ جنيها ، زائد ٤ ٪ من الارباح . وفى السينما ٣٠٠٠ جنيه قطاع خاص و ٢٠٠٠ قطاع عام . اطلب المساواة ! مثلت حتى الان حوالى ٥٥ فيلما . أنا لسه عملت حاجة !.. عاوز أعمل الفيلم الاستعراضى الغنائى، واغنى فيه أنا وشويكار.. عاوز أعمل الكوميديا الانسانية : سينما ، ومسرح !

* الزمن أخذ منى نص نظرى ، ٦ على ١٢ بالنضارة وكانت باعينى ٦ على ٦ ! الزمن نزل لى البواسير ! وعلمنى أن أفتح عينى لآكل ملبن ! فى المسائل الفنية ساعات أبقى غبى جدا ، وساعات أفهمها وهى هلام! اغلب ساعات يقظتى معتم المزاج ، لكنى من العتمة أصنع الكوميديا ! !

***

* خام وشرفك .. لم اذق طعم الجنس الا عندما تزوجت لاول مرة سنة ٤٨ ! حفظتنى تربية أبى الدينية لى ، بالاقناع لا بالارهاب والتخويف من النار !

* شبه أم كلثوم طبق الاصل . وأنا جناينى فى جنينة

فن أم كلثوم .. لهذا تزوجنا ! اسمها : عفت السرجانى « المرحومة » . اخصائية اجتماعية . ولدان : أحمد ومحمد . حاربت ميلى للمسرح وشبقى به ، من هنا افترقنا ! أعطيتها ٦ الاف جنيه وسيارتى الفولكس ، تحويشة العمر ، على سبيل التعويض !

* فى بيتى نار . أبحث عن من ينجينى . شفت شويكار فى «السكرتير الفنى» . طيبة . حنون . معجبة بفنى . فرقرت من حبى لها ونحن نمثل معا « أنا وهو وهى » .. قلت لها ونحن ممددان بالتوازى على خشبة المسرح أمام الجمهور .. « تسمحى لى أتجوزك ؟ ! » .. ردت بعتاب وسعادة : « ما تنطق يا أخى من الصبح» ! تزوجنا فى ٢٨ نوفمبر سنة ٦٣ .

ليه اتطلقنا ؟ احكى لك – أخ لاخ – موش للنشر :

* شيال هم أكثر من عتالين محطة مصر ، لكنى أغفر الاساءة ولا أحمل حقدا للمسىء .. أنساها وأنساه أخاف من العتاب أن يجرح بكلماته من أخطأ فى حقى .. ويفيد بايه ؟ ! لا انافق . أجامل معلهش .. أقول للاعور انت نصف مفتح !

* أصدق لحظات الالهام أجدها فى .. الحمام ! فيه أقرأ نصوص مسرحياتى الجديدة وأعدل فيها على أصوات الحنفيات المفتوحة على الفاضى !.. جملة القانون مفيهش زينب فى « أنا وهو وهى» ولدتها وأنا ، لا مؤاخذة ، على « الكابينيه » ! ! السبب ؟ معرفش

.. يمكن علشان الحمام هو « بيت الراحة » الخصوصى .. وفيه يجد الانسان نفسه مع نفسه مستورا عن الاخرين ! وفى الحمام آكل المانجة ، فاكهتى المفضلة .. آخد الحبايتين التيمور وأقلع لهم ملط .. وأنزل تحت الدش « هم . هم » آكلها ببقى . وبشنبى . ودقنى. الفمط روحى والتذ! تقول لى شوكة وسكينة ؟! ياخسارة المانجة فى الشوكة والسكينة !

* خواف قوى . كنت شجاعا زمان ، وقلبت معى بجبن ! وأخاف من الضلمة ! من التليفزيون لايفرقع ! من ركوب ديزل مصر ـ اسكندرية السريع الذى لايقف على محطات ! أقف على طبلية الاعدام ولا اركبش طيارة! أخاف من الكلاب ، ومن عين الحسود ! لا .. أنا أمثل أدوار الشجاعة عن جبن أصيل ، وعلى سبيل التعويض .. تمام زى ما كتبت انت مرة عن فريد شوقى !

* حياتى بلا خطايا ، وربنا فوقنا يعلم .. باعتقد انى سادخل الجنة حدف ! مؤمن بأن هناك يدا قوية تنجينى دائما .. يد الله !

***

قلت لـ « فو » المهندس :

* انت يا ابنى أستاذ ، رغم كل شيء .. انما أستاذ من غير مدرسة !.. قيمة فنية عظيمة مجردة ! لماذا لا تعطى قيمتك الفنية طعما مصريا واقعيا .. لماذا لا تتزوج بفنك الجسم المصرى ، تعايشه وتعيش منه وله .. لماذا لا تتعامل بفنك مع المنديل المحلاوى ، وبساتم المكن ، ونظارات المثقفين الطبية ؟ !

ـ حيحصل قريب .. قول يارب !

✻ « واحد جه يقعد على قهوة قعد على شاى » .. نكتة هادفة ؟ !

ـ لا، نكتة هايفه ! مفيهاش مضمون ولا لها «ايفيه»!

✻ اذن اتفقنا : الكوميديا مضمون يخدم الحياة ؟

ـ مفيش كلام . انما كمان مفيش نص ! النص الكوميدى المصرى لسه ما اتخلقش .. اعمل ايه ؟ اعمل دراما ؟ !

أمين الهنيدى :
إنت مريض .. والاعبقرى ؟!

يستطيع ابن أمين الهنيدى الطفل أن يأخذ من جيب والده كل يوم ٥٠ قرشا كمصروف شخصى ، يعنى ١٥ جنيها فى الشهر . طيب ولما يكبر الولد ويروح الجامعة ، ياخد كام ؟! مشكلة !

... الثانية صباح اليوم ، مشهد لايراه رواد مسرح الجمهورية . الباب الخلفى للمسرح . باب الممثلين . عم على البواب فى قعدة انتظار ، وابنه الطفل اسماعيل كمشان فى حجره كقطة سياميز ، وجه صبوح كالصباح ، وجفون كسرها النعاس ، لكنها تبربش وتقاوم وتستجدى اليقظة ، الكل انصرف الا امين الهنيدى .. لكى أمين ، الا يعلم ان اسماعيل فى انتظاره ؟ ! .. فجأة تفنجل عيون اسماعيل ويقفز من حجر أبيه منتترا ، ويده الصغيرة قد اللقمة تضرب تعظيم سلام لامين الذى هل على السلم . ويبتسم أمين حتى لتملأ ابتسامته كل الاتساع بين أذنيه ، يهتف بمناجاة كلمته عديمة المعنى التى اعتاد ان يرددها لاسماعيل كلما التقى به فى مثل

هـذه اللحظة ، من باب « الهلفطة » والمشـاكسـة : « براكس » .. ويرد اسماعيل بلسـان الطفـولة : « بلاكس » ! وتنهمز خطوات امين مسرعة على الدرجات الباقية من السلم ليحتضن اسماعيل ويقبله بحنان ، شلال من الحنان ، ويدس فى يده التى قد اللقمة ورقة ب ٥٠ قرشا ، ويمضى بسعادة الى أقرب تاكسى ينقله الى أقرب « بار » .. أحيانا الى البيت ! « لو ابنـك يا امين .. تدى له ٥٠ قرش مصروف ؟ » .. بعينين غائمتين باشواق الابوة : « أدى له عينيه » !

هذه الابوة اليتيمة التى لا تجد ابنا ، من يتمها ؟ ! « عششت على اخواتى بعد موت أبويا لغاية ماربيتهم، دلوقت قفلت على الـ ٥٠ سنة عمر، ولسه يادوب عريس. اتجوزت وخرى ومتشوق ابوة ! »

... والشوق الآن ارتوى ، ولد امين الهنيدى ولدا الاسم « نصر » . اشمعنى ؟ امين يرد : « علشان ربنا ينصرنى بيه .. وينصر البلد ! »

***

ماشى كلامك يا امين .. قول .. امين الهنيـدى يقول .. وهو يحب دائما ان « ينفرد » ويقول :

* امين عبد الحميد امين محمد مُحمد الهنيدى ، امين باسمى وبأخلاقى ، فى حياتى لم أسرق غير شـلن

فضة من جيب ابويا وأنا عمرى ٦ سنين ! قلت اشترى به كورة ، رحت دفنت الشلن فى جنينة قريبة من بيتنا فى القناطر الخيرية ، لغاية ما تيجى الفرصة ، ضميرى انبنى . عاقبت نفسى بأن سبت الشلن مدفون لغاية النهاردة ، وتبت توبة ، لا .. ما اقولكش على مطرحه ، لتروح تاخده !

ابن فجر!.. من مواليد فجر يوم الخميس ٢٤ اكتوبر سنة ٢٥ ، المنصورة ، أبويا أيامها كان باشكاتب سجن المنصورة . ٦ أولاد منهم بنت واحدة ، أنا بينهم الخامس ..وخامسهم قلبهم !

* أبويا من سجن لسجن ، واحنا وراه ، رقوه ودوه ليمان طرة ! كتاب الشيخ محمد فى طرة ، وعمرى ٥ سنين ، آية فى سورة « الفجر » تقول : « ارم ذات العماد »كنت آجى لحدها وينعقد لسانى ، الشيخ محمد

يشغل المقرعة والفلكة ، لو شرح لى معنى الاية لحفظتها . ووفر على نفسه عناء ضربى .. لم أعرف الا اليومين دول من حديث دينى فى الراديو أن «ارم» اسم مكان . و « ذات العماد » يعنى اللى فيه أعمدة!

* انتقلنا القناطر الخيرية . سنتان فى مدرستها الاولية ، ودخلت ابتدائى ، ٤ سنين كر وأخذت الابتدائية من مدرسة السيدة حنيفة السلحدار بشبرا سنة ٣٦.

سنتان فى مدرسة مكارم الاخلاق الاسلامية الثانوية ، وحولت لمدرسة النيل الثانوية بشبرا . مدرسة حرة . مدرسة مفاسد الاخلاق . زبالة مدارس الحكومة كانت فيك يا مدرسة النيل ، من فاقدين ، ورياضيين محترفين « فتونه » ، وهواة المذاكرة على ضوء شاشة السينما ! انفجرت وفجرت ! سقطت سنة « بدل هلس » ، ثم انتبهت قبل أن يجرفنى التيار ! اخذت الثقافة سنة ٤١ ، والتوجيهى أدبى سنة ٤٢ .

* ٤ سنين صياعة بين كليات الجامعة ، آداب ، حقوق، لقيتها صعبة بالعربى، رحت الحقوق الفرنساوى! كل ده علشان أحقق مرامى ، واطلع محامى زى يوسف بيه وهبى فى رواية « الدفاع » . أول فيلم سينما تتكحل به عيونى وأنا على دكة الترسو فى سينما الاهلى سنة ٣٤ ! فشلت . فى بيتنا قعدت . النهار للنوم ، والليل للصرمحة والبرمجة والخناق ! ابويا دفع لى أكثر من ٢٠ جنيه غرامات فى جنح ضرب . طاقة معطلة تتفجر بطريقة خاطئة !

« زى الجدار وقاعد فى الدار .. ماتشوف لك شغلة ! » .. أبويا قال .. شفت لى شغلة قراض تذاكر فى السكة الحديد ، لكن قبل ما استلم الوظيفة ضعبت على نفسى !

* سمعت عن معهد التربية البدنية العالى.. كأنى صياد مؤهل قلت أدخله وأطلع لى بدبلوم ! توجيهيتى قديمة ، لكنهم كانوا يتوسعون فى المعهد ويقبلون أى توجيهية مهما كانت أثرية ! ٣ سنين فى المعهد وأنا ماشى جنب الحيط زى اللى عنده سوابق وخايف ينكشف ، يترفد ويضيع ! أخدت الدبلوم سنة ٤٩ ، بترتيب : أول الدفعة ! ؟

مدرس تربية بدنية فى المدارس الثانوية بين القاهرة والخرطوم. بعثة دراسية فى أكاديمية اعداد القادة بمدريد سنة ٥٦ ، العدوان الثلاثى حصل وانا فى غربتى ، تألمت ألما ! أخدت الدبلوم ورجعت مدرسا فى المعهد الذى تخرجت منه . مازلت للحظة بوظيفتى ، درجة ثالثة . ٥٥ جنيها وشوية ! باروح المعهد كل يوم ، بس بالتليفون .. باعتذر كل يوم عن عدم الحضور !

***

* بذرة الفن نبتت فى وانا فى ابتدائى. «رسيم» آخد فى الرسماية ٧ من ٧ ، والكراسة تلف الفصل ! فى ثانوى هويت المونولوج، وقلدت اسماعيل يس وثريا حلمى فى الافراح واعياد الميلاد وطهور الاولاد ! انتقلت للتمثيل .. فى اجازة الصيف مع « فرقة جامعة فؤاد » لصاحبها المرحوم أنور المشرى ، اشترك فى تقديم

روايات الريحانى ، كل ده هواية ، فن للفن

* فى الخرطوم الثانوية ، محمد أفنــدى المصرى « أبو لمعة » مدرس زميلى فى المدرسة . نشاط فنى للركب وحفلات سمر فى « النادى المصرى » . صيف سنة ٥٤٠ ، فى الباخرة النيلية من وادى حلفا فى طريقنا للقاهرة . بنفتح الراديو سمعنا قافية مضحكة بين حسين الفار وسلطان الجزار .. ايه ده ؟ برنامج جديد اسمه « ساعة لقلبك » . وصلنا القاهرة ندور على عبد المنعم مدبولى ومحمد يوســـف « الفتوة » ويوسف عوف ، لقيناهم بيدوروا علينا ! بيسجلوا حلقة من البرنامج فى نادى بنك مصر : « تقولوا حاجة ؟ » .. ده مدبولى .. طلعت أنا والمصرى قلنا نكتتين .. فهمى عمر قال لنا : « خلاص بقيتوا معانا .. أصبحتم محترفين » .. رحت أصرف أول أجر من احترافى للفن لقيته ٩٩ قرشـــا ، تمام زى أسعار الاحذية فى محلات « باتا » أيام زمان!

عملت شخصية « فهلاو » . كنت فيها الفلاح الساذج الذى يسند الفتوة فى فكاهته . ماطولتش فى شخصيـــة فهلاو .. علشان كده ماحرقتش ولا اتحبست داخـــل « الشخصية النمط » زى اللى اتحبسوا !

* فرقة ساعة لقلبك المسرحية . أول دور مسرحى دور الخدام فى رواية الريحانى « ما كان من الاول » .

الجمهور فى بور سعيد افتكرنى خدام بصحيح جاى من بيت حد من أعضاء الفرقة ! الناقد القصير المكير عبد الفتاح البارودى كتب قال : « ... فى الرواية بطلان ، فؤاد المهندس كبطل رسمى للمسرحيـة ، والخدام « فهلاو » الذى لا أعرف اسمه الحقيقى ! »

* مع فرقة تحية كاريوكا من يوم تأسيسها سنة ٦١ دور الشاويش رشوان على على‌على رضوان فى مسرحية « بلاغ كاذب » ، والشيخ حسن فى « شفيقة القبطية » نجح نجاحا ، رغم كده اختلفت معهم لانشغالى فى مهرجان عيد النصر ببور سعيد . تحية كاريوكا قالت لى : « نشوف غيرك » .. عزت على كرامتى ، وقلت لها : « شوفوا » .. جابوا عبد الغنى قمر يسجل قدام التليفزيون دورى .. دور الشيخ حسن !

* كبرت بفنى ، عملت أول دور بطولة ، الشيخ علام فى رواية أنيس منصور « حلمك ياشيخ علام » . ٣٠ رواية تقريبا منذ احترفت ، ٤٠٠ جنيه من مؤسسة المسرح ، والمتحدين أزيد شوية ! كنت « ضيف » عند الجميع ، النص اللى يعجبنى أشتغله ، لا ، للمؤسسة فضلها على عينى وراسى .. لكن فضلها لايستعبدنى .. أو يستوظفنى ! الان . أصبحت صاحب فرقة ..

تجربة جديدة أخوضها .. ياراحت ، ياجت !

***

* كومبارس فى السينما ، من سنة ٣٩ وأنا باشتغل كومبارس ! كنت أتردد على مكتب الريجسيير قاسم وجدى ، والدور ب ٣٠ صاغ ! كنت فاكر ان الممثل بيقف كده ساعة التصوير ووراه شاشة بيضاء ينطبع عليها . ولم أفهم الفولة الا عندما دخلت ستوديو مصر لامثل دور « واحد بيصلى » ، وسط عشرات المصلين فى « جريدة الحج » !

أفلام كثيرة هلس . وأدوارى فيها هزيلة . دور الشيخ حسن فى فيلم « منتهى الفرح » نقطة مضيئة ، رد لى اعتبارى الذى اعتدت عليه الست كاريوكا ! من أفلامى الموش بطالة : « غازية من سنباط » ، و « غرام فى الكرنك » مع فرقة رضا ، ماشى فى السينما فى خطين بلونين : اللون الشعبى اللى زى الكشرى بالشطة ، مثل دورى فى « غازية من سنباط » ، واللون الاستعراضى مثل دورى فى « غرام فى الكرنك » ، لا موش ساكت ولا ناوى اتجمد على كده ، أبحث عن آفاق سينمائية جديدة !

* شخصية سنقر فى مسلسلة « أذكى رجل فى العالم » ومسلسلة «أشجع رجل فى العالم» أنجح أعمالى فى الاذاعة وأكثرها قيمة ، عايش على قيمتها لدلوقتى!

* انطوائى شوية ، أكلم نفسى فى مشاكلى ، ولا أكلم الاخرين ! الاخرون يعطونك الحل الامثل لمشاكلك ، وليس غيرك يمكن أن يعطيك الحل الواقعى : « واللى ايده فى الميه ... » !

قل لى يا أمين :

***

* من معلوماتك فى علوم التربية البدنية : العقل السليم فى الجسم السليم .. كلام جد ؟ !

ـ فسيولوجيا ، المفروض انه صحيح !

* وما رأيك فى أن أغلب العباقرة ـ يقول التاريخ ـ كانوا معتلى الصحة ، وان هناك نظرية قديمة للعالم الالمانى « ايكباوم » تقول أن العبقرية صفة مصاحبة للمرض والاعتلال ! ؟

ـ ان جيت للجد المرض يرهف الاحساس ، ويثير الدوافع الكامنة الى الكمال ، فاكر ليلة ما أكلنا العدس سوا فى كافتيريا هيلتون .. صبحت عيان بانفلونزا حادة وحرارة ٤٠ وشرطة ، لكنى فى المساء

قدمت احسن ما عندى على المسرح ، كنت موفقا لدرجة أثارت دهشة زملائى الممثلين !

* يعنى : انت مريض .. والا عبقرى ؟ !

ـ أنا أمين الهنيدى ! !

فهرس

صفحة
تقديم 7
كلام فى الشمس ! 9
لماذا يسمعها المثقفون ؟ 45
نجاة ... حاجات كده ! 54
سنتك سنة كبيسة ... يا بهيجة ! 65
... فى السن الخطرة 74
كلى عاطفة ... كلى عناد ! 81
يتيمة ... فى بيت بابا وماما 90
« طبيعة » امرأة .. و « أخلاق » رجل ! ... 100
بذمتك : ... أستاهل ؟ ! 109
الاصل تركى ... وخفة الدم مصرية ! 118
... لكى يهدأ الاغبياء ! 127
... أحكى لكم عن عقدتى ! 135
صوت بنت فى الجامعة... بضفاير ثانوى ! ... 145
هو ... و « المنديل المحلاوى » 156
أنت مريض ... والا عبقرى ؟ ! 167

كتاب الهلال القادم :

كائنات العوالم الاخرى

بقلم : ميشيل تكلا

رئيس التحرير : صالح جودت

يصدر ٥ يولية ١٩٧٥ — الثمن ١٢ قرشا

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7, Biskopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND.

البرازيل :

Sr. Miguel Maccul Cury.
R. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406
Sao Paulo, BRASIL.

هذا الكتـــاب

تعد النجوم فى السماء ؟! .. شىء لا يمكن ! .. لكن نجوم هذا الكتـاب يمكن عدهم بسهولة .. من اول ام كلثـــوم التى غابت فتركت فى اذاننا فراغـا ككهف ضرس بعقل مخلوع .. الى فــؤاد المهندس وشـويكار وفيروز ونجاة وفريد شـوقى .. وغيرهم عشرات .. وكلهم نجوم تجلق فى سماء الفن العربى ! .

وفى نطاق الحقيقة نقول : ان عبد التواب عبد الحى، مؤلف هذا الكتاب ، يعتبر من لخيرة لكتــاب السـيرة الذاتية « البيوجرافى » صدر له قبـــل ذلك فى سلسلته المتميزة « عصير حياتى » كتابان كتاب بسنة ٦٦ ، تضمن سيرة ٣١ شخصية عربية هامة سبقت الجميع الى تحقيق طموحهـا .. وكانت الشخصية الرئيسية فى الكتاب هى شخصية الرئيس انور السادات ..ثم كتاب « اسر مصر : عبد المنعم رياض .. حيا وشهيدا » .. يوليو ٧١ .. وهو المرجع الوحيد فى المكتبة العربية عن شهيد العسكرية المصرية البطل ..

وهذا الكتاب - تحت عينيك - هو الكتاب الثالث فى هـــذه « السلســلة » لكنه ، هـــذه المرة ، يتميــز بمـــا فيه من نعـومة لنجوم الفن . واثارتهم . وتجربتهم من السفح الى القمـة وحتى اكاذيبهم ايضا ! .

انه كتاب للقـــراءة التى تحقق المتعة   كتاب يربط بين العقول والعواطف